نظرات تربوية في القرآن الكريم*

أهمية التربية للإنسان

انظر إلى إحدى صور مادة من المواد التى نتعامل معها في حياتنا اليومية ولتكن الخشب ، مثلا ، في حالتها الأولية ، فماذا تجد من اختلافات وماذا تجد من أشكال ؟

إنها اختلافات محدودة ، لا تخرج عن كونها اختلافات أصل ونوع ، ولا تخرج عن كونها ألواحا طويلة أو قصيرة ، أو ذات مساحة كبيرة أو صغيرة .. وهكذا ،

فإذا ما تناولها أحد خبراء فن النجارة بالصناعة والتشكيل ، إذا بها تتحول إلى أشكال لا حصر لما بينها من اختلاقات ، لكل منها خصوصية تميزها عن غيرها ، فضلا عن تنوع مجالات الاستخدام والاستفادة .

شئ مثل هذا – والقياس مع الفارق – نراه في الإنسان .

فإذا نظرت إليه ، مولودا ، وجدته مادة خاما لا يكاد هذا يفترق عن ذاك إلا فى بعض الجوانب العرقية ، كشكل الشعر والعين ولون البشرة وما شابه ..

ونحن إذا كنا نسميه ، حتى في هذه الحالة الأولية (إنسانا) ، إلا أن إنسيته لا تتبدى حقيقة إلا من خلال اكتسابه شخصية لها سماتها المستمدة من الجماعة البشرية التى ينتمى إليها كأن تكون هذه الجماعة عربا أو هنودا أو (انجليزا) أو فرنسيين ، وهى ما يمكن أن نسميها لذات الإجتماعية ، ولابد أيضا أن تكون لها سماتها المتفردة التى تجعلها هذا الشخص المحدد الذى يمكن أن نشير إليه أو ذاك ، وهى ما يمكن أن نسميها الذات الشخصية

---

* سلسلة أحاديث يومية في أذاعة القرآن الكريم بالقاهرة في شهر رمضان

إن عملية إكتساب الذات الاجتماعية لا تتم إلا بمعرفة وممارسة لغة الجماعة وعقيدتها أو فلسفتها وعاداتها وتقاليدها و أنماط التفكير الشائعة فيها وارتداء ملابسها وآكل مأكولاتها ، والانفعال بقضاياها ومشكلاتها ، والمشاركة في بنائها حاضرا ومستقبلا.

وعملية اكتساب الذات الشخصية تجعل لكل منا ما يشبه (البصمة) الخاصة ، فنحن جميعا على وجه التقريب لنا أصابع تتشابه في شكلها العام الخارجى ووظيفتها ، لكن لكل فرد ، على حدة ، بصمته التى تميزه عن الآخرين ، حتى إنها تؤخذ كعلامة حاسمة ومميزة لتحديد الهوية الشخصية . كذلك ، فمهما تحادثنا بلغة واحدة ، واشتركنا في عادات وتقاليد ومعتقدات واحدة ، إلا أن لكل منا بصمة شخصية تتبدى في صوته ورؤيته الخاصة وطريقة نطقه وسيره ، وأسلوب تفكيره واتجاه فكره ونوع ثقافته ..

وسواء كانت عملية الاكتساب خاصة بالذات الاجتماعية أو بالذات الشخصية ، فإننا نستطيع أن نسميها بعملية (التربية) .

فإذا عدنا لمثالنا في البداية ، وهو عملية تصنيع وتشكيل مادة الخشب لنصنع هذا الشكل أو ذاك مما نستعمله في حياتنا من كراسى وموائد ودواليب ومكاتب .. إلخ ، لرأينا أن الصانع يصعب إن يمارس عملية التصنيع هذه وعملية التشكيل تلك، إلا من خلال (نموذج) ، على قدر ما يكون من الدقة وتلبية الحاجة و الملاءمة وقابلية التحقق ، والتفرد ، على قدر ما يتسع الباب أمام الصانع لينتج ويشكل منتجا يكون أيضا – إذا كان صانعا ماهرا – على النحو الذى تكون عليه هذه المواصفات.

حاجة التربية إلى الدين

وهكذا – والقياس أيضا مع الفارق – نجد عملية تربية الإنسان

وتنشئته وتشكيله ، بحاجة ملحة وماسة لوجود (نموذج) يصور ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان ، ذاتا شخصية وذاتا إجتماعية ، حتى يستطيع الصانع وهو هنا (المربى) ، إحسان التصنيع ، وإتقان التنشئة، وتجويد التشكيل .

ونحن نحرص علي أن نقرن كلامنا دائما بعبارة (والقياس مع الفارق) لأن الإنسان ليس عنصرا سلبيا مثل مادة الخشب أو غيره ، ليس عليه إلا أن يتقبل ما يصنع به ، بل هو كائن حى ، ذو إرادة وعقل ومشاعر ، له دور فعال في كل ما يحدث لتشكيله وتنشئته بدرجات متفاوتة على قدر ما يقع الفعل في نطاق الاستطاعة البشرية .

والصانع المربى الذى نشير إليه لشخصية الإنسان ليس فقط المعلم في المدرسة أو الأستاذ في الجامعة ، وإنما هو كل من يقوم بجهد مؤثر وفعال في تشكيل شخصية المواطن بصورة فيها قدر من الاستمرارية النسبية ، ومن هنا يدخل في هذا النطاق بالدرجة الأولى الأب والأم ، ثم هناك الداعية ورجل الإعلام ، وشخصيات أخرى تتفاوت درجات تأثيرها بقدر ما يكون من علاقات واستمرارية . ولأهمية (النموذج) الذى لابد منه لإحسان عملية التربية والتنشئة ، حرص كثير من الفلاسفة والمفكرين والمصلحين ، على مر التاريخ ، في مختلف المجتمعات ، على تصور (فلسفة) أو (نظرية) تحدد للعمل التربوى مسارات الفعل وغايات الجهد وأشكال التنفيذ ، كما رأينا عند أفلاطون وأرسطو عند اليونان قديما، وكما رأينا عند جان جاك روسو وجون لوك وكانط وفروبل وبستالوتزى وهيجل وغيرهم في أوربا حديثا ، وكما رأينا في تراثنا الحضارى من جهود فكرية لابن سينا والغزالى والفارابى وابن خلدون.

وفي كل ما رأينا من نماذج فكرية أوربية ، يؤكد لنا استقراء التاريخ الفكرى والاجتماعى أنه ما من نموذج استطاع أن يحقق نجاحا كبيراً في

هذا الشأن ، لأن لكل واحد من هؤلاء تفسيراته ورؤاه التى تتباين فيما بينها وتختلف ، في الزمان الواحد ، باختلاف المجتمعات ، وف المجتمع الواحد باختلاف الأزمنة ، وفقا لكم كبير من العوامل مما يستحيل معه الزعم بأن هذه النظرية أو تلك ، هذا النموذج الفكرى أو ذاك هو الذى يصور حقيقة الإنسان ، ومن ثم العملية التربوية المناسبة والتنشئة الملائمة .

وهنا لا مفر من أن يبرز على الفور ذلك التساؤل البديهى : أليس خالق هذا الإنسان وموجده من عدم ، ومنشئه ومكونه ، هو الأعلم ، وهو الأدرى بما يجب عليه أن يكون ؟ وبالتالى ألا يكون النموذج الفكرى الذى وضعه ، هو الأصح ، وهو الأحق بأن يوجه العمل التربوى ويحدد له مسارات العمل ومسالك التنفيذ ؟

وهكذا نصل إلى تلك الحقيقة الأساسية

إن الإنسان لا يكون إنسانا على وجه الحقيقة إلا باكتسابه ذاته الاجتماعية وذاته الشخصية.. وأن العملية التربوية هى السبيل إلى ذلك ..

وأن الرسالة الإلهية ، في صورتها الأخيرة ، وهي الإسلام ، هى نموذجها الذى لابد أن تنسج على منواله وتهتدى بهديه ..

أهمية التربية للدين .

إن هذه الحقيقة تمثل حاجة التربية إلى الدين بصفة عامة ، والى الدين الإسلامى بصفة خاصة ، لكن يظل هناك سؤال يحتاج إلى إجابة وهو :

هل تعتبر العملية التربوية عملا أساسيا في الدين الإسلامى ؟

إن أحاديثنا كلها بما تحمل من أمثلة وبراهين وحجج ، تشير بالإيجاب عن هذا التساؤل ، لكننا نود هنا أن نلفت الانتباه إلى حقيقة الدين كما ورد على لسان النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قال(الدين

المعاملة) . فالدين ليس مجرد التقبل العقلى ، والاطمئنان القلبى بما بعث به الرسول العظيم صلوات الله عليه وسلامه ، ولكن لابد من إكمال هذا بالتجسيد العملى من خلال السلوك الإنسانى ، فالإيمان إذا ما وقر في القلب وصدقه العمل، والترجمة العملية لما نحمل من افكار ومعتقدات إلى عمل وسلوك ، مهمة التربية بالدرجة الأولى، ذلك أن التربية نفسها ليست مجرد حشو لمعلومات وحقائق ومعارف في الأذهان والعقول ، وإنما هي أيضا تنمية للشخصية بمختلف أبعادها وجوانبها ، والمربى الذى ينمى العقل وحده عن طريق خزن المعلومات والمعارف ، مهملا تنمية جوانب الشخصية اجتماعيا ونفسيا وعاطفيا وجسميا ومهاريا ، كمن يعمل على تنمية جزء من جسم الإنسان أو جهاز من أجهزته ، مهملا بقية الأجزاء والأجهزة ، فهل يمكن أن يستقيم الأمر إذا حدث هذا ؟

إن كتاب الله عز وجل موجود منذ أن نزل به الروح الأمين ، وهو سيستمر موجودا إلى ما شاء الله ، وفيه هداية وتوجيه وإرشاد مما يكفل استقامة حياة البشر وسعادتهم ، ومع ذلك فما زال التخلف يظلل معظم البلدان الإسلامية ، ومازال الشقاء يطحن ملايين المسلمين في أنحاء كثيرة من العالم ، لأن (العمل) بما في كتاب الله لم يصل بعد إلى الحد الأدنى اللازم لأن يتحول عنده هذا العمل إلى طاقة نووية تكفل تحريك الجماعة الإسلامية بالسرعة الملائمة لحركة الحياة المعاصرة في جوانبها المتقدمة ، فضلا عن التقدم عليها بما يميز هذه الجماعة عن غيرها. ونحن إذ نشير إلى العمل بكتاب الله ، فإنما نشير إلى (الصناعة) المؤهلة للقيام بهذا العمل ألا وهى (العملية التربوية) بأبعادها الشخصية التى تعنى إعادة صياغة وإعادة تشكيل كل منا فردا وذاتا بعينها ، كما تعنى كذلك أبعادها الاجتماعية التى هى إعادة تشكيل الجماعة الإسلامية وإعادة صياغتها .

وليس هناك ما يشرف عملية التربية ، أكثر من تلك العلاقة التى نجدها بين الفعل (رب) واسم الله عز وجل (الرب) ، و(ربّ) الولد ، أى وليه وتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه ، وهكذا الله سبحانه وتعالى ، هو الذى يلى هذا العالم ، دنياه وآخرته ، ويتعهده بما يغذيه وينميه ويؤدبه ، ولذلك لا يقال (الرب) في غير الله إلا بالإضافة ، فتقول (رب البيت) ، و(رب العمل) وهكذا ، فكل من هذا وذاك ، يلى العمل البيت أو المصنع ، ويتعهده بما يميه .

ومن هنا يجئ اعتزاز الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله قد أدبه فأحسن تأديبه.. ومن هنا أيضا تجئ إشارته صلوات الله وسلامه عليه إلى كل مسلم بأنه راع ومسئول عن رعيته.

خلق الإنسان والعملية التربوية

من أجل هذا قد لا نكون مغالين إذا قلنا إن التربية ، ربما دون غيرها من العلوم والمهن الأخرى ، هى الوحيدة التى بدأت في نفس اللحظة التى بدأت فيها حياة الإنسان !! ففي سورة (ص)، الآيتان ٧١ ، ٧٢ في القرآن الكريم نجد :

﴿إذ قال ربُّك للْملائكة إنّي خَالقٌ بشراً مِّن طين ﴿٧١﴾ فَإذا سَوَّيْتُهُ ونَفخْتُ فِيه مِن رُوحي فقعُوا لَهُ ساجِدِين﴾ .

فها هنا نجد أنفسنا أمام أول عملية تربية من قبل المربى الأعظم ، والأول .. يضع البنية الأساسية للشخصية الإنسانية.. يضع الشروط والمواصفات التى في إطارها ، وفي ضوئها ، انطلق الإنسان يسلك أو يفكر وينفعل ويحب ويكره .. الى غير هذا وذلك من تصرفات ، ويؤيد ذلك ويدعمه ما رواه الترمذى عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال :

(إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسمر ، وبين ذلك ، والسهل والحزن، والطيب والخبيث) .

إن ما يهمنا أن نلفت النظر إليه في هذا الحديث الشريف ، إن الله عز وجل قد وضع وأنشأ في الإنسان ، المقومات الأساسية التى بناء عليه نجد هذا يسلك ويفكر بطريقة قد تختلف عن هذا وذاك ، وأن هذا وذاك يسلكان ويفكران بطريقة قد تختلف عن الثالث . وهكذا ، بمعنى أن أسس التربية الأولى قد وضعها عز وجل .

وإذا كنا بهذا نثبت للعملية التربوية (أولية) في الأصل والنشأة ، فإننا أيضا ، بلا مبالغة أو افتعال ، نستطيع أن نثبت لها (أولية) في الحاضر والمستقبل وفقا لما اقتضته سنة الله في خلقه ، بشرا وغير بشر .

تأمل في سلوك هذا الحيوان أو ذاك : حمارا ، أو نمرا أو غير هذا وذاك، كما قد تسجله كتب التاريخ القديم ..

ثم انظر إلى سلوك نفس هذا الحيوان أو ذاك فيما تشهده عيناك أو تقرؤه في الوقت الحاضر هل ترى من اختلاف ؟

كـــلا...

ثم تأمل في سلوك الإنسان ، عربا أو هنودا أو انجيز ، أو غير هذا وذاك ، كما سجلته كتب التاريخ القديم ..

ثم انظر إلى سلوك نفس الإنسان (إن كان عربيا أو غير ذلك) فيما تشهده أو تقرؤه في الوقت الحاضر ، هل ترى من اختلاف ؟

بالطبع ، نعم .. التفسيرات كثيرة ، والتأويلات متعددة ، وهى كلها لا اختلاف بينها وإنما هى زوايا تتكامل بعضها مع بعض لتشير في نهاية الأمر إلى إن هذا الإنسان الذى استحق التكريم من قبل الخالق عز وجل ، واستحق التفوق على كثير من المخلوقات ، هو أكثرها قابلية للتعلم بل قل ، أن قابليته للتعلم ، حدودها غير معروفة ، فهى غير محصورة حتى الآن ، ويكفى أن نلفت النظر إلى أن هذا التقدم الذى يذهلنا معرفيا وعلميا كما ونوعا وتعدد مجالات وتنوع آفاق ، يظل دائما مستحقا لوصفه عز وجل في قرآنه المجيد : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)!!

قابلية الإنسان للتعلم :

تعكس الدراسة العلمية لمختلف أنواع وفصائل الكائنات الحية أن الإنسان هو أكثرها حاجة ، عقب الولادة ، للرعاية ، نظرا للعجز الشديد الذى يكون عليه لحظة الميلاد ، فضلا عن طول الفترة اللازمة له حتى يستطيع أن يستقل بنفسه ويعتمد على ذاته . ومن الملاحظ كذلك أن هذه الفترة تزداد طولا بتطور وتقدم الحضارة الإنسانية بصفة عامة ، وهي تتباين طولا وقصرا وفق درجة تطور وتقدم المجتمع .

ويستدل علماء النفس والتربية والاجتماع من ذلك على وجود إمكانات لا حصر لها زود الله عز وجل الإنسان بها للتعلم وحسن التعامل مع متغيرات البيئة الطبيعية والبيئة الإجتماعية ، قال سبحانه وتعالى في سورة البقرة ، الآيات : ٣١-٣٢ .

﴿ وعلَّمَ آدمَ الأَسْماء كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكَة فَقَالَ أَنْبئُوني بأَسْمَاء هَؤُلاء إن كُنتُمْ صادقين (٣١) قَالُوا سُبْحَانَك لا علْم لَنَا إلاَّ ما علَّمْتَنَا إنَّكَ أَنت الْعَليمُ الْحكيمُ ﴾.

وقد قال كثير من المفسرين إن الله سبحانه ، علمه الأشياء كلها ، ما كان كائنا منها وما سيكون إلى يوم القيامة ، لم يدع من ذلك شيئا ، كبر أوصغر . قالوا : وعلمه أسماءها كلها باللغة التى كانت كائنة ، وبكل لغة ستكون يوم القيامة .

وقال الشيخ عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء إن الذي يفهمه ، أنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن ، وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأشجار وثمار وفروع وورق ولب ونوى ، جميع الأوعية والأدوات التى هناك وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه ، لاحتياجه إليها .

ويزيد البهى الخولى في كتابه (آدم عليه السلام ، صـ١١٢) أن الله سبحانه بث في آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الانتفاع بها ، ونحسب أن ذلك هو معنى الأسماء في قوله سبحانه :(وعلم آدم الأسماء كلها)، أى علمه مسمياتها وما لها من خصوصيات المنافع والمضار ، فإن اسم الشئ يقترن دائما في الذهن بحاله من : صورة ، لون وأجزاء ، وبحاله من سائر المقومات والمزايا الحسية والمعنوية .. وما جدوى الإسم إذا لم يكن دالا على ماوراءه من مقومات الذات وخصائص الجواهر والعناصر ؟

أما الزمخشرى ، فقد ذكر " أى وعلمه أحوالها وما يتعلق بها من المنافع الدينية ، والدنيوية ، فالمعول عليه ليس هو الإسم المؤلف من حروف هجائية ، إنما ماتدل عليه تلك الحروف ويشير إليه ذلك الإسم من صفات الشئ الذى سمى به . "

والذى نفهمه نحن – والله أعلم – من هذه الأيات ، أن الله عز وجل زود الإنسان بعدد من الاستعدادات والإمكانات العقلية والجسمية ما يمكنه من معرفة ما يمكن أن تصل إليه هذه الإمكانات والاستعدادات مما خلقه الله

عز وجل من هذا الكون، ولعل ما يعزز هذا الفهم قوله تعالى في سورة النحل ، الآية ٧٨

﴿ واللَّهُ أخرجكُم مّن بُطُون أُمّهاتكُم لا تعلَمُون شيْئا وجعل لكُمُ السّمْع والأبْصار والأفئدة لعلّكُمْ تشكُرُون ﴾ .

اكتساب العلم

فالعلم هنا ليس فطريا يولد الإنسان وهو مزود به ، وإنما هو يحصل عليه بعد أن تدب الحياة فيه ويخرج إلى الدنيا خارج بطن أمه مزودا بوسائل الحصول على المعرفة ألا وهى العقل والحواس المختلفة . فالجانب الفطرى يتمثل في (القدرة والاستعدادات) ، وجانب الاكتساب يتمثل في استخدام القدرة والاستعداد وممارستها .

إن الإنسان يوهب القدرة – مثلا – على السمع والبصر ، لكن : كم ما يسمع ، وكم ما يبصر ونوعه ، ومكانه وأشكاله ، وما يحمله من دلالات ومعانى وما بين بعضه البعض من علاقات .. كل ذلك ، مما يجئ بالممارسة والخبرة والمعاناة .

ويبدو أن الشيخ محمد عبده يميل إلى حمل آية (وعلم آدم الأسماء كلها) إلى ما تهيأ في فطرة هذا الخليفة الإنسانى واستعداده من علم ما لم يعلموا (الملائكة) فتبين لهم وجه استحقاقه لمقام الخلافة في الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء ، لا يذهب بحكمةالاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته وسر العالم وحكمته .

وهذا التأويل مقبول في نظر الدكتورة عائشة عبد الرحمن (مقال في الإنسان ، ص٣٨) ، لا يمنعه ما في الآية من النص الصريح على أن آدم ، في بدء حياته ، علم بتوفيق الله ، ما استطاع به أن ينبئ عن أسماء لم

يُعلَمها اللهُ الملائكة .

وقد عاد الشيخ محمد عبده فقال شبه مستدرك ، فيما نقل عنه صاحب المنار الشيخ محمد رشيد رضا " ثم إن الذى يتبادر إلى الفهم من طبيعة التعليم هو التدريج يعلمكم مالم تكونوا تعلمون . ولكن المبادر من تعليم آدم الأسماء أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه ، بالفعل أو بالقوة ، ولذلك قال محمد عبده : علم الله آدم كل شئ . ثم أن هذه القوة العلمية ، عامة في النوع الآدمى كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم ، فيكفى في ثبوت القوة لهم ، معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال ، ومن ذلك عرفنا بهذه القصة ، قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا ، فعلينا أن نجتهد في تكميل أنفسنا بالعلوم ، إلى خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق ، لنظهر حكمة الله فينا، ولعلنا نقف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا " ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم " تفسير المنار ، جـ١ ، ص٣٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ولا يفوتنا الالتفات إلى قول الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) من في كل علم كسبى عن جنس الملائكة ، على حين يتميز الإنسان دون الكائنات الأخري بميزة القدرة علي تحصيل العلم الكسبى ، واستعداده لكسب المعارف الوضعية (مقال في الإنسان ، ص ٣٩). وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده في تفسير الآية (.. وكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فإن له استعدادا محدودا وعلما إلهاميا وعملا محدودا .. على عكس الإنسان .

العلم يكمل ضعف الإنسان

وأما الإنسان ، فقد خلقه الله ضعيفا وخلقه جاهلا ، ولكنه على ضعفه وجهله ، عبرة لمن يعتبر وموضع عجب المتعجب ، لأنه ، مع ضعفه ، يتصرف تصرف الأقوياء ، ومع جهله في نشأته ، يعلم جميع الأسماء ، ويعطى قوة أخرى ، تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له بها السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها ويذللها ، كما تشاء تلك القوة الغريبة التي يسمونها العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهى التى تغنى الإنسان عن كل ما وهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذى يقيه البرد والحر ، والأعضاء التى يتناول بها غذاءه والتى يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التى يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان. تفسير المنار ، جـ١ ، ص ٣١٧ .

ثم إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتى نصيبا منه ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم ، فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الإلهى إلا قليلا ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الإلهى ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) ، فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الإنسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه .

فما وهبه الإنسان إذا من عقل ، وما خلق له من حواس ، هو مربط الفرس ، ومجمع القدرة على التعلم ، لكننا نرجئ الحديث عنهما لأهمية اختصاصهما بموضوعات مستقلة ، ونكتفي هنا بلغت النظر إلى أمر مألوف، ومن كثرة وشدة إلفنا به ، قلما ننتبه إلى عمق دلالته وبعد مغزاه لا لعملية التربية والتعليم فحسب ، وإنما بالنسبة للتطور البشري على وجه العموم .

فلو تأمل الانسان في شكل جسمه لأدرك أن الصورة التى خلق عليها ، لعبت ، وما زالت ، وسوف تظل ، إلى ما شاء الله ،دورا هاما وواضحا في إقدار الإنسان علي التعلم مما يستطيع أن يفيض فيه شرحا وتعليقا ، السادة الأطباء المتخصصون . لكننا نود أن نشير إلى جانب بعينه .

قدرات الإنسان على التعلم

فلو دققنا النظر هذا لأدركنا كم من أبواب لا حصر لها من المعرفة فتحت وآفاق اقتحمت من خلاله، هذا الجانب هو (يد) الإنسان ، بما هى عليه من أصابع اتخذت شكلا بعينه وخاصة أصبع الإبهام وما أقدرت عليه من حركات القبض والبسط والإمساك ، تري ، إذا لم تكن لنا هذه الأداة ، ذات الشكل الظاهري البسيط، هل كان الإنسان يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه من أجهزة ومعدات يعسر إحصاؤها ، هى سبيل تقدمه وتطوره ؟ هل كان يستطيع أن يدير سيارة أو قاطرة أو طائرة ؟ هل كان يستطيع أن يكتب؟ هل كان يستطيع أن يطهو الطعام ؟ هل كان يستطيع أن يبنى هذه الأبنية الشاهقة الضخمة ؟ ويشق الطرق ويقيم الجسور ؟ وما ارتبط بهذا وغيره من علوم ومعارف تمتلئ بها ملايين الكتب والأبحاث والدراسات عبر مختلف العصور وتباين المجتمعات .

وتلعب اللغة دورا هاما وخطيرا في تمكين الإنسان من التعلم والتعليم، فبها نتعلم ، وبها نعلم ، وبها نكتب وبها نقرأ ، وبها نسجل تراث السابقين، وبها نطلع علي هذا التراث فننموا ونتطور ونتقدم ، فهى مجمع ثقافة الأمة حتى أنها لتعد علامة أساسيةً وحاسمة في التمييز بين أمة وأخرى وبين قومية وأخرى ، وللإنسان أن يتصور كيف كان يمكن أن يكون تقدمه وتطوره لو لم يمنحه الله عز وجل هذه القدرة على (الكلام) .

ومن هنا فقد ذهب العديد من الفلاسفة والمفكرين وعلماء التربية والنفس والاجتماع ، في معرض إثبات السمة المميزة للإنسان عن عامة الحيوان ، فقال إن الإنسان ينفرد عنها بأنه قادر على النطق ، فقالوا إنه (حيوان ناطق) ، وشاع هذا الوصف والتمييز .

لكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن وجهت نظرنا إلى أن مجرد النطق الصوتى ليس مناط إنسانية الإنسان الناطقة ، وهي تستأنس هنا بالآيات الست التى ورد فيها لفظ (البكم) ، حيث يتعين فيها جميعا إن قيمة النطق أو السمع والبصر ، ليست في آلية هذه الأجهزة العضوية ، فالحيوان في عمومه المطلق مزود كذلك بألسن وآذان وعيون ، وإنما مناطها في أن يكون النطق الإنسانى ، بيانا ، وسمعه وعيا وإدراكا ، وبصره تمييزا وهدى ، وإلا مسخت إنسانيته فهبط الإنسان إلى دونية الدواب العجماء :

- (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) . الأعرف/٣٩.

- ﴿ ومثَلُ الّذين كَفرُوا كمثلِ الّذي ينعِقُ بما لا يسْمعُ إلاّ دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقلُون ﴾ . البقرة /١٧١ .

- ﴿ الّذين كذّبُوا بآياتنا صُمٌّ وبُكْمٌ فِي الظُّلُمَات ﴾ الأنعام /٣٩

- ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابَ عِندَ اللّه الصُّمُّ الْبُكْمُ الّذين لا يعْقِلُون ﴾ الأنفال/٢٢

- وهو يصف الذين يظهرون الإيمان نفاقا ويبطنون الكفر بقوله : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهُمْ لا يرْجِعُونَ ﴾ البقرة /١٨ .

- ﴿ وضرَب اللّهُ مثلاً رَّجُلَيْنِ أَحدُهُما أَبْكمُ لا يقْدِرُ علَىٰ شَيْءٍ وهُوَ كَلٌّ

عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَما يُوجِّههُّ لا يأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يسْتوي هُو ومَن يأْمُرُ بالْعدْل وهُو علَىٰ صراط مُّسْتقيم ﴾ النحل /٧٦

- ﴿ ومن يهْدِ اللَّهُ فهُو الْمُهْتد ومن يُضْلِلْ فلن تجد لهُمْ أوْلِيَاء من دُونه ونحْشُرُهُمْ يوْمَ الْقيامةِ علىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وبُكْمًا وصُمًّا مَّأْواهُمْ جهنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرا ﴾ الإسراء/٩٧

وتجئ مادة (الكسب) بصيغها المختلفة لتنفي الفطرية المطلقة لما يصل إليه الإنسان بفكره وما يفعله بيده ، فهناك كم كبير من الأفكار والمعتقدات والأعمال ، إنما هى من كسب الإنسان وفعله بإرادة واختيار تبرهن كلها على أنه قد زود بآلات الفعل وإمكانات العمل والتفكر:

- ﴿ تلْك أُمَّةٌ قَدْ خلتْ لها ما كَسبتْ ولَكُم مَا كسبْتُمْ ﴾ البقرة /١٣٤.

- ﴿ ظهر الفسَادُ في الْبرّ والْبحْرِ بما كسبتْ أيْدي النّاس ﴾ الروم /٤١

- (تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) الأعرفا / ٢٢ .

- ﴿ لكن كذَّبُوا فَأخذْنَاهُم بما كَانُوا يَكْسِبُون ﴾ الأعراف /٩٦ .

- ﴿ وكلّمُنا أيْدِيهمْ وتشْهدُ أرجُلُهُم بما كانُوا يكْسبُونَ ﴾ يس /٦٥ .

وإمكانات العلم والتفكير التى زود الله بها الإنسان ، من شأنها ، إذا أحسن التعلم بها وصلحت التربية عن طريقها ، انتهي الأمر بالإنسان إلى السواء والاستقامة ، لكنها أيضا إذا ما وجهت إلى طريق الانحراف وساء العمل بها والتفكير أوقعت الإنسان في مهاوى الهلاك ، ومن هنا يجئ قوله عز من قال (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) .

معانى التعليم في القرآن

وإذ يثبت لنا أن الإنسان قد وهب العديد من إمكانات التعليم فأصبح أكثر الكائنات قابلية للتعلم والتعليم ،يصبح الطريق ممهدا للكشف عما في القرآن الكريم من آيات ومشاهد وحجج وصور لضرورة القيام بمهمة التعليم والتى هى هنا بمعنى أن يقوم المربى أو المعلم بنقل(رسالة) ذات محتوى معرفي أو وجدانى أو مهارى إلى إنسان آخر كى يزيد بما يتلقاه نموا فيصبح أكثر كفاءة وفاعلية على المستوى الشخصى الذاتى والمستوي الإجتماعي العام .

ويجئ التعبير القرآنى عن عملية (التعليم) ومهمة (التربية) بصيغ ومصطلحات متعدة يمكن الإشارة إلى أهمها فيما يأتى :

١ - **الإبلاغ** :حيث (بلغ الأمر) ، أي وصل إلى غايته ، وأبلغه الشئ ، أوصله إليه والبلاغ ، ما يتوصل به إلى الغاية .

وأول من كلف بمهمة التبليغ هم الرسل والنبياء ، فهذا نوح عليه السلام ، كما تقول آيات القرآن المجيد يؤكد لقومه أنه أرسل من الله عز وجل حتى يبلغهم مضمون رسالته ، ويرشدهم ويوجههم إلى ما فيه صلاح امرهم وعزة شأنهم ، وهو إذ يقوم بمهمة التبليغ ، فلما يحمله من علم ينفرد به عن سائر قومه ، وهذا العلم مصدره الله عز وجل : ﴿**قالَ يا قَوْمِ لَيْس بِي ضَلالَةٌ ولكنّي رَسُولٌ مّن رَّبِّ الْعَالَمينَ (٦١) أُبلِّغُكُمْ رِسالات ربِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وأعْلَمُ من اللّه ما لا تعْلَمُون**﴾ الأعراف /٦٢

ويتكرر موقف نوح في قومه ، مع (هود) في قوم عاد ، فقد أرسله الله

إليهم باعتباره واحدا منهم ، بل من أشرفهم ، حتى يستطيع التفاهم معهم لكن قومه أنكروا ما جاء به ، بل واتهموه بالسفه ، فماذا كان رد هذا الرسول الكريم في موقف التعليم الذى يقفه ؟ إنه يكتفى بنفي ما سبوه به دون ما محاولة لرد هذا السب عليهم ، مؤكدا إنه جاء مبلغا لرسالة الله إلى هؤلاء ، فضلا عما تقتضيه مهمة التبليغ من توجيه وإرشاد : ﴿ **قل يا قوْم ليْس بي سفاهةٌ ولَكنّي رسُولٌ مّن رَّبّ الْعَالَمينَ ﴿٦٧﴾ أُبلّغُكُمْ رسَالات ربّي وأنَا لكُمْ ناصحٌ أمينٌ** ﴾ الأعراف / ٦٧ ٦٨

ثم موقف ثالث هو موقف (ثمود) حيث أرسل الله عز وجل إليهم أخاهم صالحا مزودا بمعجزة (الناقة) لتكون دليلا لهم ، ومع ذلك فقد خالفوا ما أمروا به ، وذبحوا الناقة وأفسدوا، وطلبوا من صالح أن يأتيهم بالعذاب الذى هددوا به ، وبالفعل أتاهم أمر الله جزاء بما اقترفوا من الإثم ، وكان لابد أن يلفت صالح أنظارهم إلى أن هذا الذى يأتيهم إنما يأتى بعد أن قام بمهمة الإبلاغ والنصح والتوجيه ، فلما لم يعملوا بما أبلغوا به ، كان لابد أن يشهدوا ما شهدوه ، وتلك نهاية كل من يصم أذنيه عن الحق ؟

﴿ **فأخذتهُمُ الرّجْفةُ فأصْبحُوا في دارهمْ جاثمين ﴿٧٨﴾ فتولّى عنهُمْ وقال يا قوم لقدْ أبلغْتُكُمْ رسالة ربّي ونصحْتُ لكُمْ ولكن لاّ تُحبُّون النَّاصحين** ﴾الأعراف/٧٨ . ٧٩

وموقف رابع هو موقف (شعيب) في قومه كذلك ، فمهمة التبليغ قد تمت بنفس الدرجة ونفس المستوى ونفس الأبعاد التى أرادها الله عز وجل ، فلما أن حق عليهم الهلاك جزاء إعراضهم عن العمل برسالة التبليغ ، أصبحوا غير مستحقين لأن تزرف عليهم الدموع أو يحزن عليهم إشفاقا ﴿ فتولى عنهُم وقال يا قوم لقد أبلغتُكُم رسالات ربّي ونصحْتُ لكُمْ فكيف آسىٰ علَىٰ قومٍ كافرين ﴾ الأعراف /٩٣ .

٢ - **بيّن** : بان الشئ بيانا ، ظهر واتضح ، وأبان الشئ : أظهره وأوضحه ، وبين الشئ : تبيانا أو ضحه . فهذه الكلمة بهذا المعني ، تفيد إيصال معلومة جديدة إلى الطرف الآخر حيث تفيد الكشف عما لم يكن معلوما بوضوح.

وهنا نجد القرأن الكريم يروى لنا أمر قوم من الجاهلين المعاندين الذين يسألون الرسول صلى الله عليه وسلم أمورا لا تصدر عمن يريد الوصول إلى الحقيقة وإنما تصدر عن روح معاندة واستخفاف ومكابرة ، وهم في ذلك يكررون مواقف أقوام سابقة مع أنبيائهم ، ومع ذلك فإن الله عز وجل لم يترك رسولنا الكريم بلا آيات واضحة . لكن هذا (التبيين) لا يؤتى أكله ويثمر تعلما نافعا إلا بصفاء القلب وصدق النية ، وانتفاء التصلب الفكرى والجمود العقلى ، فرسالة التعليم مهما كانت واضحة ، لابد لها ، مثل (البذور) من أرض صالحة تتقبلها : ﴿ **وقَالَ الَّذِين لا يَعْلَمُون لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لقومٍ يُوقِنُونَ** ﴾ البقرة / ١١٨ .

ولأن التعليم في الإسلام لا يبتغى به مجرد الحصول على المعرفة وإدراك الحقائق بل لابد من تغير في السلوك يتفق ووجهة الإسلام ، كان ذلك الحرص الواضح علي أن يقرن التبيين بالنتيجة السلوكية المرجوة من كل مسلم ألا وهى (التقوى) :

﴿ **كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ آياته للنَّاسِ لعَلَّهُمْ يَتَّقُون** ﴾ البقرة / ١٨٧ ، ويقول أيضا: ﴿ **كذلك يُبَيِّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ . آل عمران / ١٠٣ ، فمن شأن الوضوح الفكرى والصفاء القلبى أن يكشف الطريق الصحيح أمام الإنسان.

وما كان من سنن الله في خلقه ، ولا من حكمته ورحمته ، بعد أن هدى

قوما إلى الإسلام وأنقذهم من الكفر ، أن يحبط أعمالهم ويصفهم بالضلال عن طريق الحق لارتكابهم أمرا لم يعلموا أن الله قد نهى عنه ، ولم يبين لهم ما يتقون وما يجتنبون من المحظورات ، فإن خالفوا بعد ما تبين لهم وجه الحق بيانا شافيا واضحا استحقوا اسم الضلال وأجريت عليهم أحكام الضالين. وأما قبل النهي والعلم والبيان ، فلا سبيل عليهم ، والله وحده هو يعلم مافي قلوبهم فيأخذهم بما يستحقون : ﴿وما كان اللَّه لِيُضلَّ قوْمًا بعْد إذْ هداهُم حتىٰ يُبيّن لهُم مَّا يتّقُون إنّ الله بكُلّ شَيْء عليمٌ ﴾ التوبة /١١٥ .

وهذا التبيين لن ينتج سلوكا تقيا إلا بالنظر والتفكير فيه ، فقد يبين المربى مسألة ويوضحها ثم لا يعيها عقل المتعلم علي الرغم من ذلك ، أو لا يجعلها موضع تفكير وبحث ودراسة ، ناظرا إليها كمعرفة جاهزة لا عليه إلا أن يتقبلها ويحفظها ، ومن هنا تجئ كلمات ربنا عز وجل : (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) البقرة / ٢١٩ .

وهكذا نقف أمام آيات متعددة تؤكد لنا أن الخالق الأحد ، هو أيضا المعلم الأعظم ، والذى يهدف بما يعلمنا إياه أن نهتدى إلى ما فيه صلاح أمر دنيانا وأخرتنا :

- ﴿ يريدُ اللَّهُ ليُبين لكُم ويهديكُمْ سُنن الّذين من قبلكُم ﴾ النساء/ ٢٦
- ﴿ يبيّنُ اللَّهُ لكُمْ أن تضلُّوا واللَّهُ بكُلّ شيْءٍ عليمٌ ﴾ النساء / ١٧٦ .
- ﴿ كذلك يُبيّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لعلَّكُمْ تشكُرُون ﴾ المائدة / ٨٩ .
- ﴿ يُبيّنُ اللَّهُ لكُمُ الآيات واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ النور / ٥٨ .

﴿ وتلْك حُدُودُ اللَّه يُبيّنُها لقوْمٍ يعْلَمُون ﴾ البقرة / ٢٣٠ .

ثم تجئ الرسل برسالة الله للناس ويعلمونهم ما جاءوا به .

- ﴿قَدْ جاءكُمْ رسُولُنا يُبيّنُ لَكُمْ علَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ المائدة /١٩ .

- ﴿قَدْ جاءكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكِتابٌ مُّبِينٌ﴾ المائدة /١٥ .

وتبرز لنا قاعدة هامة بالنسبة لمن يتولون أمر التربية والتعليم ، فالتعليم عملية اتصال ، واللغة هى الواسطة الأساسية في الاتصال، مما يوجب أن يكون المربى على دراية وتمكن من لغة من يريد أن يعلمهم ويربيهم . وليست اللغة مجرد تراكيب لفظية ، ذلك أن هذه التراكيب محملة بثقافة خاصة وقيم معينة تتخلل عملية الاتصال اللغوى والتربوى ، ومن هنا يجئ قول الحق تبارك وتعالي :

(وما أرسلنا من رسول الإ بلسان قومه ليبين لهم ..) إبراهيم /٤

٣ - **التبشير** : التبشير يعنى ، ضمن ما يعني، الدعوة إلى الدين . والرسل ، باعتبارهم حملة رسالة الحق إلى الناس ، يحرصون على القيام بواجبهم ببعديه : فهم يبشرون من يمثل للحق فاهما ، مدركا مقتنعا عاملا ، وينذرون المعاند المكابر :

- ﴿إنَّا أرْسلْناك بالْحقّ بشيراً ونذِيراً﴾ البقرة /١١٩ .

- ﴿وما أرسلْناك إلاَّ كافَّةً لِّلنَّاس بشيراً ونَذيراً﴾ سبأ/٢٨ .

- (إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) الفتح /٤٥ .

- ﴿وما أَرسلْنَاك إلاّ مُبشّراً ونذيراً﴾الإسراء / ١٠٥ + الفرقان/٥٦.

- ﴿فبَعَث اللَّهُ النَّبِيّين مُبشّرِين ومُنذِرين﴾ البقرة /٢١٣ .

- ﴿رسُلاً مُّبَشّرِين ومُنذِرِين لِئلاَّ يكُون للنَّاسِ علَى اللَّه حُجَّةٌ بَعْد الرُّسُلِ﴾ النساء/١٦٥.

٤ - **الدعوة :** ف (دعا) إلى الدين والى المذهب ، حثه على اعتقاده ، والداعية ، الذى يدعو إلى دين أوفكرة . وهذا العمل هو أيضا من أعمال التربية والتعليم . وعمل الدعوة أكثر ارتباطا في الأدبيات الإسلامية بتعليم الدين وتبليغه . ولأن رأس هذا العمل هو الدعوة إلى الله ، ولأن الدعوة إلى الله لا تقف عند حد التلفظ بالكلمات المبينة لذلك ، بل تحتاج إلى أن تقترن بثمرتها ألا وهي العمل الصالح ، استحق هذا العمل المديح من الله عز وجل:
﴿ومن أحسنُ قوْلاً مِمَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المُسلمين﴾ فصلت ٣٣

فالتعليم هنا على وجهين : تعليم لفظى يتبدى فيما ينطق به المعلم الداعية من قول ، وسلوك عملى يسلكه الداعية نفسه ، إذ هو ، بهذا السلوك العملى ، يجذب الآخرين ببرهان ملموس وحجة واقعية . وليست المسألة مسألة تطبيق وعمل ، أى تطبيق وأى عمل ، وإنما هو عمل ، شرطه (الصلاح) ، وبهذا يكون مضمون الدعوة مؤديا إلى التغيير المطلوب وتبديل الأوضاع إلى ما هو أفضل وإلى ما هو أحسن.

وباعتبار الرسول الكريم هو الداعية الأول ، فإن مضمون دعوته أحق بالاستماع والاتباع، فهو من لدن عليم حكيم . وإذ يكون مطلوبا من المؤمن الاستجابة إلى هذه الدعوة ، فلما لها من قدرة علي إحيائهم . والإحياء هنا ليس إحياء جسديا وإنما هو روح وقوة وازدهار وحيوية في الحياة البشرية بالعلوم المختلفة والمعارف المتعددة والقيم الهادية :

(ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) الأنفال /٢٤، فتعاليم الإسلام فيها إحياء المجتمع وعزته ، وغيابها والإعراض عنها فيها تخلفه وترديه ، وفيها تجمده ومواته .

لكن ماذا يكون الموقف عندما يبث الداعى دعوته فلا يستجيب له القوم

ويصموا آذانهم عن الاستجابة لها ؟! إن مثالنا هنا هو مثال نوح عليه السلام ، حيث تبين لنا سورة نوح كيف كان لا يكل عن الدعوة ليل نهار ، ولم يتوان عن إرشادهم إلى الخير لحظة . وهو كلما دعا قومه للإيمان بالله عطلوا جميع منافذ العلم إلى قلوبهم فجعلوا أصابعهم في آذانهم ليمنعوها السمع وغطوا عيونهم بثيابهم ليمنعوها الإبصار وغطوا قلوبهم بالإصرار على الكفر والضلال ، وجعلوا الكبر رداء لعقولهم.

ويبين نوح أنه سلك في سبيل تعليم قومه سبيل التدرج في دعوته وأنه لم يترك سبيلا منها فكانت دعوته الأولى سرا ، ثم ثنى بالجهر ، فقال : ثم إنى دعوتهم جهارا ، أى دعوتهم ثانيا فجهارا ، فلم تجد معهم تلك الطريقة أيضا

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ نوح/٥-٩

ونتيجة الإصرار على استمرار الجهل ، كان لابد أن يحدث ما حدث مما هو معروف لقوم نوح. وليس هناك طريق واحد للعلم ، فهناك العلم الحق وهناك العلم الفاسد . هناك الوعى المستنير وهناك الوعي الزائف . وللطريق الأول دعاته من المهتدين الذين استقاموا ، وللطريق الثانى دعاته الذين ضلوا وانحرفوا :

﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ غافر /٤١ .

﴿ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ غافر/٤٢ .

إن الطريق المستقيم في التعليم ينبغى أن ينهج منهج الإسلام الذى

هو سبيل الله : ﴿ قلْ هذه سبيلي أدْعُو إلى اللّه ﴾ يوسف /١٠٨ ، فإذا ما وجد فئات تصر على الجهل والضلال ، وتعاند وتكابر وتستنفد معهم وسائل وسبل الهداية والرشاد والتعليم ، فلا مفر من اعتزالهم واجتنابهم : ﴿ وأعْتزلُكُمْ وما تدعُون من دُون اللّه وأدعُو ربي ﴾ مريم /٤٨

فهى ليست عزلة عمل سلبى وليست عزلة انفصال واحتجاب ، وإنما هى بعد عن طريق لا يؤدى إلى الصواب ، وترك السبيل الذى يؤدى إلى الانحراف ، ليستمر العمل الإيجابى بغير تشويش ، ويستمر الفعل النشط في الدعوة والتعليم مع آخرين .

وإن تعجب فاعجب لقوم تأتيهم التعاليم الكفيلة بتقويم اعوجاجهم ، مقرونة بالأدلة القوية والحجج الدامغة ، لكن منافذ المعرفة ، إذ تستغلق ، لا يصلون إلى الفهم المطلوب ، ولا يدركون الحقيقة فيكون بينهم وبين الرسول حجاب الجهل يحجب عنهم الرؤية ويحول بينهم وبين حسن الوعى وصحة الإدراك :

﴿ وقالُوا قُلُوبُنا في أكنّة مّمّا تدْعُونا إليْه وفي آذاننا وقْرٌ ومنْ بيْننا وبيْنك حجابٌ فاعْملْ إنّنا عاملُون ﴾ فصلت /٥.. إنه اصرار على لمضى في طريق الجهالة !!

إن طريق الدعوة والتعليم إذا ليس طريقا هينا يسير يقوم فيه الداعية والمعلم بنقل ما لديه إلى الآخرين ليتوقع منهم سرعة الاستجابة ، فهناك من ينكرون ويصرون علي الإنكار :

﴿ وإن تدْعُوهُمْ إلى الهُدى لا يسْمعُوا ﴾ الأعراف /١٩٨ .

﴿ إن تدْعُوهُمْ لا يسمعُوا دُعاءكُمْ ولوْ سمعُوا ما استجابُوا لكُمْ ﴾ فاطر/١٤

﴿ وإن تدْعُوهُمْ إلى الهُدى لا يتّبعُوكُم ﴾ الأعراف /١٩٣ .

﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ الشورى /١٣ .

وكثيرا ما لا يقف الأمر عند حد عدم الفهم أو الإنكار والمكابرة ، بل قد يتعداه إلى المقاومة مما يحتم علي القائم بأمر الدعوة والتعليم أن يكون مناضلا . ولا بقوة السلاح و إنما بقوة العلم وأسلحة الجدل بالتى هى أحسن وتنوع الأساليب والوسائل .

والدعوة في الإسلام هى إرشاد إلى طريق الخير . خير الفرد وخير المجتمع ملتزما بأسس ومنهاج الشريعة ، وهي تربية للأفراد والجماعات كى يتمكنوا من الوصول إلي ما ينمي شخصياتهم ويعظم من قدرات بلدانهم ، مما استوجب أن تكون هناك في المجتمع الإسلامى جماعة تأخذ على عاتقها الإرشاد إلى طريق الخير:

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف)

وكلمة (الخير) هنا تتسع لكل ما من شأنه إصلاح أمر الجماعة الإسلامية دنيا وآخرة . وإذا كان النظر البشرى والمقياس المجتمعى للخير قد يتفاوت ويتباين باختلاف الزمان والمكان ، فإن جماع المنهج الإسلامى هو المقياس وهو المعيار لما يعد خيرا وما لا يعد كذلك ، هكذا تتأكد تلك المقولة التى لا نمل من ترديدها ، وهي أن التعليم في الإسلام ، إذ يبتغى وجه الله ، فإن ابتغاء وجهه تعالى يؤدى بالضرورة إلى خير الناس وصلاح أمرهم ورفاه حياتهم .

وإذا كان الله عز وجل قد بين ضرورة الدعوة والتعليم وغايتها ومنهجها ، فقد حرص كذلك علي أن يرشد إلى (الوسيلة) أو (الطريقة) ، فالتعليم جهد لضم آخر إلى نفس الدائرة ، دائرة الداعى أو العالم أو المعلم ، والمشاركة هنا هى مشاركة فكر وعلم ، ومشاركة الفكر والعلم لا يمكن أن

تتم قسرا وبالقوة ، إن سبيلها هو الاقتناع والإقناع والخلق القويم . ومن هنا يجئ التوجيه التربوى القرآني لكل من يقوم بمهمة الدعوة والتعليم :

(ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل / ١٢٥ .

٥ - **التـــــــلاوة** : ويجئ أمر التعليم أحيانا في صيغة آمر بالتلاوة من الرسول على آخرين ، كما أنها تجئ بمعنى (يتعلم)- يتلو - عندما يقوم بهذا الفعل ، الإنسان بنفسه لنفسه

والتعليم المطلوب هنا يتناول قصص الأنبياء - المرسلين السابقين ، وأحداث ماضية ، ومايضمه ويشمله القرآن الكريم من أحكام ومعاملات وعقائد ، من مثل :

- (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) المائدة /٧١.
- ﴿ واتْلُ مَا أُوحي إليْك من كتاب ربّك ﴾ الكهف /٢٧ .
- ﴿ واتْلُ عليهمْ نبأ إبراهيم ﴾ الشعراء /٦٩ .
- ﴿ اتْلُ ما أُوحي إليك من الْكتاب وأقم الصّلاة ﴾ العنكبوت / ٤٥ .

وإذا كان هناك معاندون مكابرون ، فإن هناك المؤمنين العابدين الذين ليس في قلوبهم مرض ، سليمى التفكير ، خالصى النية . هؤلاء عندما تتلى عليهم آيات الله عز وجل ، تحدث أثر ها الفعال ، إذ تكسب المؤمن مزيدا من الإيمان والتقوى :

﴿ وإذا تُليتْ عليهمْ آياتُهُ زادتْهُم إيمانا ﴾ الأنفال /٢

بل إن من المؤمنين من ترتفع بهم قوة الإيمان إلى درجة عالية من الشفافية ، حتى يحدث لهم مايقوله سبحانه وتعالى في سورة مريم ، آية ٨٥ . (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) ، على عكس هؤلاء

الجاهلين المعاندين :

﴿ وإذا تُتْلَىٰ عليهمْ آياتُنَا بيِّنات تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكر ﴾ الحج . ٧٢ وأيضا :

﴿ وإذَا تُتْلَىٰ عليْه آياتُنا ولَّىٰ مُسْتَكْبِراً كأَن لَّمْ يسْمَعْهَا ﴾ لقمان ٧

٦ - **النصح :** يقال نصحت توبته ، خلصت من شوائب العزم على الرجوع . ونصح قلبه ، خلا من الغش. ويقال نصح فلانا وله ، أرشده إلى ما فيه صلاحه . وهذا المصطلح بهذا المعنى ، عمل من أعمال التربية والتعليم

وتجئ آيات ربنا سبحانه وتعلى محملة بهذا المعنى كما نرى فيما يلى

- ﴿ وقال يَا قوْمِ لقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رسَالَةَ ربِّي ونصحْتُ لَكُمْ ﴾ الأعراف /٧٩

- ﴿ أبلِّغُكُمْ رسالات ربِّي وأَنصحُ ﴾ الأعراف / ٦٢ .

- ﴿ أُبلِّغُكُمَ رسالات رَبِّي وأَنَا لكُمْ ناصحٌ أَمينٌ ﴾ الأعراف / ٦٨ .

لكن النصح قد يتحول إلى مجرد جهد لفظى ويقوم به الناصح لا ينتج تغيراً في السلوك وإن كان يمكن أن يضيف إلى العقل عددا من المعانى والأفكار. وهو يمكن أن يكون هكذا إذا لم يقرن بالقدوة من الناصح ، وإذا لم يقترن النصح كذلك ببيان السبل والإجراءات التى تجعل ماينصح به فعلا محققا ومالا يقل عن ذلك أهمية أن يكون في حدود الاستطاعة البشرية ، وأمثلتنا في ذلك ، مواضع النصح المختلف التى أشار إليه القرآن الكريم.

٧ - **التذكر :** فذكر الناس ، أي وعظهم ودعاهم الى استحضار أمور إلى أذهانهم مما من شأنه أن يصحح مسار سلوكهم ويجنبهم عثرات التفكير . وهذه آيات القرآن المجيد تشير إلى ذلك :

- ﴿ فذكِّرْ بِالْقُرْآن من يخَافُ وعِيد ﴾ ق/٤٥ .

- ﴿وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرىٰ تنفعُ الْمُؤْمنينَ﴾ الذاريات / ٥٥ .
- ﴿فذكِّرْ إن نَّفعت الذِّكْرىٰ﴾ الأعلى /٩ .
- ﴿فذكِّرْ إنَّما أنت مُذكِّرٌ﴾ الغاشية /٢١ .

﴿أن أخْرِجْ قوْمك من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ وذكِّرْهُم بأيَّام اللَّه﴾ابراهيم/٥

فماذا بالنسبة لمن نذكره ، ويظل سادرا في غيه ؟ إنه هنا يأتى من السلوك ما يضعه في زمرة الظالمين المستحقين لغضب الله وعذابه . بل إن ظلمهم لهو من الدرجات العليا لأن عذر الجهل غير قائم ، فالإعراض عن آيات الله يكون هنا بالمعنى الذى يقال إن فيه إصرارا وقصدا وبالتالى استحق هذا الوصف :

﴿ومن أظْلَمُ ممَّن ذُكِّر بآيات ربِّه فأعْرض عنْها﴾ الكهف /٥٧ .

وعكس هؤلاء ، مؤمنون صادقون ، يسارعون إلى الامتثال والعودة إلى الطريق المستقيم. إذا ذكروا بما يكونوا قد نسوه :

﴿إنَّما يُؤْمنُ بآياتنا الَّذين إذا ذُكِّرُوا بها خرُّوا سُجَّدًا﴾ السجدة /١٥

٨ - **الوعــظ :** كذلك تجئ كلمة (وعظ) بمعنى نصحه وذكره بالعواقب ، وكذلك بمعنى أمره بالطاعة ووصاه بها ، ولهذا فانها تستغرق معني من معانى العملية التعليم . ففي سورة لقمان ، الأية ١٣ نجد .

(وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم)

إنها لعظة غير متهمة ، فما يريد الوالد لولده إلا الخير ، وما يكون الوالد لولده إلا ناصحا وهذا لقمان الحكيم ينهى ابنه عن الشر ويعلل هذا النهى بآن الشرك ظلم عظيم ، ويؤكد هذه الحقيقة مرتين مرة بتقديم النهى

وفصل علته ، ومرة بإن واللام ، وهذه هي الحقيقة التى يعرضها محمد صلى الله عليه وسلم على قومه ، فيجادلونه فيها ، ويشكون في غرضه من وراء عرضها ، ويخشون آن يكون وراءها انتزاع السلطان منهم والتفضل عليهم ، فما القول ولقمان الحكيم يعرضها على ابنه ويأمره بها ؟ والنصيحة من الوالد لولده مبرأة من كل شبهة، بعيدة من كل مظنة ؟ ألا إنها الحقيقة القديمة التى تجرى على لسان كل من آتاه الله الحكمة من الناس ، يراد بها الخير المحض ، ولا يراد بها سواه ، وهذا هو المؤثر النفسى المقصود (في ظلال القرآن ، جـ٥ ، صـ ٢٧٨٨).

والوعظ التعليمى في القرآن الكريم لا يكتفى بالنهى والحكم على ما ينهي عنه ، وإنما يتبعه بالتفسير الهادف إلى الإقناع ، فمثل هذا النوع من الوعظ أكثر فعالية في الولوج إلى العقول والقلوب ، وبالتالى أقرب إلى العمل به ، يقول عز وجل مفسرا لماذا يعد الشرك عظيما بالإشارة إلى مظهر من مظاهر عظمة الخالق :

﴿يا بُني إنَها إن تكُ مثْقال حبَّةٍ مّنْ خرْدَلٍ فتكُن فِي صخْرةٍ أوْ فِي السَّمَوات أوْ فِي الأرْض يأْت بها اللَّهُ إنَّ اللَّه لطِيفٌ خبيرٌ﴾ لقمان / ١٦

يقول تفسير الظلال، أنه ما يبلغ تعبير مجرد عن دقة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقة الحساب وعدالة الميدان ما يبلغه هذا التعبير المصور ، وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع .. حبة من خردل ، صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة (فتكن في صخرة) .. صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها (أو في السموات) .. في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذى يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . (أو في الأرض) ضائعة في ثراها وحصادها لاتبين ، (يأت بها الله).. فعلمه يلاحقها ، وقدرته لا تفلتها

obeikan.com

(إن الله لطيف خبير) . جـ٥، صـ٢٨٩ .

وتتعدد الآيات القرآنية المشيرة لعملية الوعظ كعملية تربية وتعليم وإرشاد :

- ﴿ واذْكُرُوا نعمت اللّه عليْكُمْ وما أنزل عليْكُم مّن الْكتاب والحكْمة يعظُكُم به ﴾ البقرة/٢٣١ .

- ﴿ إنَّ اللّه نعمَّا يعظُكُم به إنّ اللّه كان سميعا بصيراً ﴾ النساء /٥٨

﴿ وينْهىٰ عن الْفحْشاء والْمُنكرِ والْبَغْيِ يَعظُكُمْ لعلَّكُمْ تذكَّرُون ﴾النحل/٩٠

- ﴿ يعظُكُمُ اللّهُ أن تعُودُوا لمثْله أبدا إن كُنتُم مُّؤْمنين ﴾ النور /١٧ .

التعلم : كعملية :

والتعلم هو الطرف الآخر في العملية التربوية ، فإذا كن هناك من يعلم ويعظ وينصح .. الخ، فلابد أن يكون هناك في المقابل من يتعلم ومن ينصح ويوعظ .

وأول ما يستوقفنا هنا ، ذلك التقدير الكبير الذى تفيض به آيات الكتاب الكريم لمن يتعلمون ، ففي سورة الزمر ، اية ٩

﴿ قُل هل يسْتوي الّذين يعْلمُون والّذين لا يعْلمُون ﴾

إنهما لمستويان من البشر ، في المستوى الأول ، بشر يعرفون الله ويقدرونه حق قدره ، يرجون ما أعد لهم من ثواب على ما يؤدون من طاعات ، وفي المستوى الثانى ، بشر لا يرجون بأعمالهم خيرا ولا يخافون من سيئها شرا لهم ولأمثالهم .

ويؤكد الله عز وجل ذلك التقدير الخاص لطلاب العلم في الآية الحادية عشر من سورة المجادلة فيقول (يرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ..)

بل إن الذين حصلوا المعرفة والعلم هنا يقترنون بالذين آمنوا ، وفي ذلك ربط بين العالم والإيمان في موقف يرتفع بالإنسان المؤمن الساعى إلى المعرفة إلى مرتبة التشريف والتكريم .

ثم إن الله جلت قدرته يشبه الحاصل على العلم بالبصير والجاهل بالأعمى ، الأول يعى ويدرك ويفهم حقيقة التوحيد وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والثانى قد استغلق عقله وعمى قلبه ، فلم يعد يدرك ويعى الحق ، يقول تعالى في سورة الرعد ، آية ١٩ : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَبِّكَ الْحقُّ كمنْ هُوَ أعْمىٰ إنَّما يتَذكَّرُ أُولُوا الأَلْبَاب ﴾ .

وعندما أخبر صموئيل نبى بنى اسرائيل قومه بأن الله قد اختار طالوت من سبط بنيامين بن يعقوب ملكا عليهم ، أدهشهم ذلك ولم يعجبهم ، فأنكروه ، على أساس ذلك المعيار الذى يشيع ويسود في عهود الانحراف العام ، آلا وهو مقدار الثروة المادية وحدها ، فهو لم يعرف بالثراء والغنى ، بينما كان فيهم من عرف بذلك .

هنا يبرز معياران مستقيمان : العلم والجسم ، فوفقا لهذين المعيارين يستحق طالوت أن يكون ملكا ، وكانت قوة الجسم ضرورة في زمن يتطلب قدرة علي النضال البدنى والجهاد الحربى وقدرة على تحمل المشاق ، فضلا عن اقتران هذه القوه الجسمية بالعلم يضبطها ويوجهها إلى المسار السليم ، يقول عز من قال في سورة البقرة ، آية ٢٤٧ .

﴿ وقال لهُمْ نبيُّهُمْ إنَّ اللَّه قدْ بعث لكُمْ طَالُوت ملكًا قالُوا أَنَّىٰ يكُونُ لهُ الْمُلْكُ علَيْنا ونحْنُ أحقُّ بالْمُلْك منْهُ ولمْ يُؤْت سعةً مِّن الْمال قال إنَّ اللَّه اصْطفاهُ عَلَيْكُمْ وزادهُ بسْطةً في الْعلْم والْجسْم واللَّهُ يُؤْتي مُلْكهُ من يشاءُ واللَّهُ واسعٌ علَيمٌ ﴾ .

ولأن العلم طريق إلى الحق ، فإن سالكه هو أكثر الناس خشية لله

لكثرة معرفته برسالته وعمق درايته بمضمونها ، يقول عز وجل في سورة فاطر ، آيه /٢٨ :﴿ إِنَّما يخْشى اللَّه منْ عبادِه الْعُلماءُ ﴾

ويسبق الله هذا التقرير بتعداد بعض اياته الكونية كاختلاف ألوان الثمار والجبال ، كذلك الناس والدواب والأنعام ، فمثل هذه الاختلافات تستدعى التأمل والدرس والاعتبار ، وهذا أمر العلماء بما يملكون من أدوات ومهارات وقدرات وتفتح آفاق العقل ، يقول تعالى في سورة فاطر ، آية ٢٧-٢٨ ﴿ أَلَمْ ترَ أنَّ اللَّه أنزل من السَّماء ماءً فأخرجْنا به ثمرَاتٍ مُخْتلفا ألْوانُها ومن الْجبَالِ جُدُدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلفٌ ألْوانُها وغرابيبُ سُودٌ (٢٧) ومن النَّاس والدَّوابِّ والأنْعَامِ مُخْتلفٌ ألْوانُهُ كذَلك إنَّما يخْشى ﴾

طلب المعرفة من المتمكنين من العلم :

إذ كان طلب العلم والمعرفة أمرا مرغوبا يستحث عليه ، إلا أن المسألة ليست مجرد معارف سطحية وثقافية قشرية ومعلومات جزئية ، وإنما هى ضرورة تجويد تعلم وإحسان معرفة وإتقان علم ، ففي القرآن الكريم آيات محكمة العبارة واضحة ظاهرة لا تقبل تأويلا ولا تحتمل اشتباها ، ومن مثل هذا آيات التحليل والتحريم والوعد والوعيد والثواب والعقاب وآيات القصص ،وضرب الأمثال، وآيات الفرئض والحدود ونحوها مما كان دليلها واضحا وتحصيل العلم بها ميسورا .

لكن هناك آيات أخرى متشابهة لا يسهل على العقل تحصيل معناها الحقيقى ، هنا تجئ أهمية التعمق المعرفى والرسوخ العلمى ، فمن يتوفر لديهم هذا هم الذين ينبغى أن نسعى اليهم، فهم المتمكنون في العلم ، وهم أهل اليقين ، ولا ينبغى لطالب العلم المسلم أن يقنع بتأويل وتفسير المرجفين الذين يسعون إلى بذر الغموض وتعميق الخلاف ونثر الشكوك ،

قال تعالى في سورة آل عمران ، آية ٧ : ﴿هو الَّذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾، بل إنه لمنهج قرأني وعلمي يجب الامتثال له والسير عليه وهو ألا نطلب العلم إلا من أهله ولا نسعى في سبيل الفهم إذا استغلق علينا أمر إلا لأهل الدراية به ، وما دمنا نفتقد ما يمكننا من الفهم والدراية ، فلا عيب في أن يجهل الإنسان أمرا ، ولا ضير من أن تعسر على المتعلم مسألة ، ولكن العيب كل العيب ألا نأتى البيوت من أبوابها : ألا نتجه إلى من يعنيهم سبحانه عز وجل بقوله في سورة النحل ، آية ٤٣ : ﴿فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

والرسول صلى الله عليه وسلم هو البشير وهو النذير ، ولذلك كان الاتجاه إلى سنته الشريفة مصدرا أساسيا للتعلم بعد القرآن الكريم ، أمرا مطلوبا من كل مسلم .

كذلك من المطلوب من طالب العلم المسلم أن يسعى إلى أولى الأمر لمعرفة الحقيقة . وليس المقصود بأولى الأمر هنا كما قد يتبادر إلى الذهن أصحاب الحكم والإدارة ، وانما هم أصحاب العلم والدراية أيضا ، يقول عز وجل في سورة النساء ، آيه ٨٣ :﴿وإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾

وحينما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، أتاه حبران من أحبار أهل الشام ، فلما أبصرا المدينة ، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبى الذى يخرج في آخر الزمان . فلما دخلا على النبى صلى الله عليه وسلم عرفاه بصفاته المذكورة في التوراة ، فقالا له : أنت

محمد ؟ قال نعم، قالا . وأنت أحمد ؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهادة فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلانى . فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله .فأنزل الله عليه الآية (١٨) من سورة آل عمران ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إله إلاَّ هُوَ والْمَلائِكَةُ وأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمَاً بالْقِسْطِ لا إله إلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾فكان أن أسلم الحبران.

فهاهنا تأتى شهادة الذين أوتوا العلم مقرونة بشهادة الله عز وجل وبشهادة الملائكة ، وهى شهادة إظهار وحدانيته باقامة الأدلة المؤكدة لقدرته

القرآن مصدرا للتعلم :

وإذا كانت هذه هى منزلة الذين أوتوا العلم ، وإذا كانت هذه هى مكانتهم وتلك هي أهميتهم ، فإن شرف المنزلة تكون على قدر شرف موضوعها ، وشرف موضوعها يكون على قدرة شرف المصدر ، والعلم إذا كان قد شرف حملته والساعين إليه والطالبين له ،فإنما يكون ذلك بمصدره الإلهى المتمثل في القرآن الكريم .

ولربما يتبادر إلي أذهان البعض أن أمر التعلم إذا ، يقتصر شرفا وتقديرا على التعلم من القرآن الكريم دون أن يمتد ذلك إلى سائر ميادين المعرفة ومجالات العلم وهذه مسألة تحتاج إلى إيضاح وبيان.

إن مذاكرة القرآن الكريم وتعلمه وفهمه واستيعابه . تقتضي بنفسها ، بالضرورة أن يسعى الإنسان بعقله وقلبه وما وهب من أدوات المعرفة ووسائلها إلي كتاب الله (الكونى) .. المشخص في البحار والأنهار ، في الجبال والسهول ، في السحاب والمطر ، في البشر وعلاقاتهم ، في النبات والحيوان.. الخ .

هكذا نفهم القرآن مصدرا للتعلم ومنهاج حياة ودليل علم ، وهكذا يدعو

الله عز وجل إلى دراسة القرآن الكريم وتأمل معانيه وفهم دلالته ، فمنه ينبع الإقرار بالتوحيد ، فالتناسق والتكامل والاتساق في آيات القرآن برهان على وحدانية قائله عز وجل ، يقول في سورة النساء، آية ٨٢: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ .

وعند النظر إلى القرآن الكريم مصدرا للتعلم ، لا نقف فقط عند حدود لفظة التعلم بحروفها ، فهناك من ألفاظ القرآن الكريم ما يحمل معنى التعلم بصيغ لفظية مختلفة ، لكل منها دقته في بعض الزوايا ، ومثال ذلك يجئ مصطلح (التدبر) ليركز على جوانب الفهم وإدراك العلاقات بين الأسباب والنتائج واستخلاص الدلالات.

وهذا القرآن تبيان لكل شئ ، فصلت آياته بتميزها بفواصل ومقاطع ، وميزت معنى ، بكونها مشتملة على السير وقصص الأولين والتشريعات والكونيات والوعد والوعيد والمواعظ والحكم وتهذيب الأخلاق ورياضة النفوس ، والتوحيد وكل ما يدعو إلى الحياة الطيبة في الدارين ، وقد أنزل الله القرآن عربيا بلغة العرب ليعلموا أسراره ويستطيعون فهم معانيه وإدراك أهدافه وغاياته : ﴿كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون﴾ فصلت ، آية ٣ .

ولقد سهل الله لفظ القرآن ويسر معناه ليسهل حفظه وفهمه ، وملأ آياته بأنواع القصص ذات العبر والمواعظ ، ليتدبر من أراد ويعتبر من شاء ، فهل من متعظ يعتبر فيكف عن المعاصي ؟ وهل من قارئ يحفظه ويتدبر معانيه فيهتدى بنوره ، ويتبع شرائعه فيسلك الطريق السوى المستقيم ؟
﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ القمر ، آية ٣٢ ، ويقول : ﴿ونفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ التوبة ، آية ١١ .

فهو سبحانه وتعالى يبين الآيات ويوضحها لقوم يريدون فهمها

obeikan.com

فيتفكرون فيها وينتفعون بها . ويقول أيضا في سورة البقرة ، آية ٢٢١ :

(.... ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .

وإذا كانت مثل هذه الآيات تشير إلى التعلم من كتاب الله تفضيلا واستحسانا ورجاء ، فإن هناك مايفيد (الأمر) ، يقول تعالى في سورة الأعراف ، آية ١٧١ : ﴿ خذُوا ما آتيْناكُم بِقُوَّةٍ واذْكُرُوا ما فيه لعلَكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ . وكذلك في سورة البقرة ، آية ٦٣ : صحيح أن الخطاب هنا كان موجها لبنى اسرائيل ، لكن الحكم عام بضرورة معرفة ما أتى به الله وأخذه مأخذا جديا نشطا وفهمه واستيعابه ، فبقدر ما نعرف ونسلك نفهم ونعى وفقا لما جاء به الله عز وجل بقدر ما نكون عليه من التقوى والفلاح .

وإذا كنا قد أشرنا إلي مصطلح (التدبر) ليدل على فعل التعلم عندما يقوم على الفهم والوعى والإدراك والاستبصار ، فإن هناك أيضا مصطلح (التلاوة) الذى ورد كثيرا في القرآن الكريم ، والذى قد يفهم البعض منه أنه مجرد التلفظ لسانا بالآيات والكلمات ومن هنا يجئ حرصه عز وجل على وصف من يقرأون كلام الله قراءة صحيحة كما أنزل ويفهمونها ويتدبرونها ، فهؤلاء يصلون إلى الغاية المنطقية ، وهى الإيمان :

﴿ الذين آتيناهُمُ الْكتاب يتلُونهُ حقَّ تلاوته أُولئك يُؤْمنُون به ﴾،البقرة، اية ١٢١ ، فالتلاوة هنا ليست أية تلاوة ، وإنما هى تلاوة فهم واعتبار ، تلاوة امتثال واستقامة .

والانتفاع بنتائج التعلم يرتبط بأمر هام هو بمثابة العمود الفقرى ، ألا وهو (التقوى) ، ولعل هذا هو ما يميز تربية الإسلام عن غيرها من مذاهب وفلسفات ونظريات. وهكذا نجد هؤلاء الذين يخشون ربهم ، تزهر ثمرات تعلم القرآن لديهم بسرعة ، ومن هنا يجئ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ سيذَّكَّرُ من يخشىٰ ﴾ ، الأعلى ، آية ١٠ .

وعلى عكس ذلك ، يكون هذا الذى غلبت عليه شقوته وفرغ قلبه من خشية الله وتقواه : (ويتجنبها الأشقى) ، الأعلى ، آية ١١ . ولعل هذا يعد برهانا آخر من لدن خالق الإنسان ، للإنسان ، الذى هو موضوع التربية ، بأن رسوخ التقوى وخشوع القلب ، والتوجه الي الله دائما ، من شأنه أن يفتح وعى الإنسان وينشط عقله فيستقبل من مثيرات التعلم ومنبهاته ما من شأنه أن يرفع مستواه ويعز شأنه .

وإذا كان الإنسان مطالبا بتعلم القرآن ، وأن هذا التعلم القرآنى موجه بالضروة إلى تعلم كتاب الكون ، فهناك العديد من آياته وظواهره التى ينبغي على الإنسان أن يتجه اليها إبتغاء التفكر والفهم :

من مجالات تعلم في القرآن

– من هذه الظواهر عملية خلق الإنسان نفسه وكيف أن الله قد أوجده من عدم فمن شأن دراسة مثل هذه المسألة أن توجه عقل الدارس إلى ضرورة الإيمان بالله :

(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا) مريم /٦٧

ففي هذه الآية وتلك التى سبقتها نجد بين أيدينا مصطلحا آخر لعلمية التعليم ألا وهو (ذكر) ، ومنه تأتى تلك المصطلحات الشهيرة التى نكثر من استخدامها مثل (ذاكر) و(مذاكرة) و(استذكار) .

– وتعلم القرآن أيضا يوجه نظر المتعلم الى ضرورة أهمية معرفة النجوم ، وهى شموس عظيمة تضئ بذاتها، وهى أجرام سماوية أعظم جرما وضؤا وحرارة من الشمس ، وإنما تبدو ضئيلة ضؤا وجرما وحرارة لبعدها السحيق وأهمية معرفة وظائفها بالنسبة للإنسان يهتدى بها في ظلمات البحر ، فدراسة مثل هذه المسألة لهؤلاء الذين يتوفر لديهم وعى وقدرة على النظر والاعتبار والفهم : ﴿**وهُو الَّذي جعَلَ لكُمُ النُّجُوم لتهْتَدُوا بِها فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ**

والْبحر قدّ فصّلْنا الآيات لقومٍ يعْلمُونَ﴾ الأنعام / ٩٧ .

ومن المصطلحات القرآنية الدالة كذلك على عملية التعلم ، الفعل :

فقه ، وهو أيضا مشبع بدلالات الفهم وإعمال العقل . وفي معرض ما يؤدى إليه تعلم القرآن من انفتاح آفاق وتعدد مجالات كونية ، ينبهنا المولى عز وجل إلى أهمية النظر والتفكر في أصل الجماعة البشرية الواحد، ففي مثل هذا الأصل الواحد ، برهان ساطع علي وحدانية الله ، وله تداعياته الاجتماعية والإنسانية الأخرى من حيث المساواة والتكافل والعدل الاجتماعى وتكافؤ الفرص ونبذ التمييز والعنصرية ، وهذه دلالات ومعانى لا يدركها الإنسان إلا بالوعي والفهم :

﴿ وهُو الّذي أنشأكُم مّن نّفْسٍ واحدةٍ فمُسْتقرٌّ ومُسْتوْدعٌ قدْ فصّلْنا الآيات لقوْمٍ يفْقهُون﴾. الأنعام / ٩٨ وفي سورة العنكبوت ، الآية ٤٣ : ﴿ وتلْك الأمْثالُ نضْربُها للنّاسِ وما يعْقلُها إلاّ الْعالمُون﴾، فها هنا مصطلح آخر وهو الفعل (عقل) ، فالذى يعقل أمرا، يفهمه ويستوعبه ويدركه فيصبح ثمرة تعلم قائم على الفهم والوعى .

– وتعلم القرآن يؤدى بالإنسان إلي إدراك أهمية الشمس والقمر وما ينتج عن دراستهما من عمليات أساسية ، لا قوام للحياة الإنسانية الإ بها ، فضلا عن تولد علوم ودراسات أخرى عن هذه العلميات ، فلجميع الكواكب مجالات فلكية تدور فيها حول الشمس ، كما تدور الأقمار حول كواكبها ، وتدور الأرض وكثير من الكواكب حول محورها ، ومن هذا الدوران ينشأ الليل والنهار . وهكذا يمكن حساب الأوقات من الأيام وأجزائها ، والأسابيع والشهور والفصول والسنين العادية والضوئية، وهذا الحساب فيه ضبط لأوقات الصلاة ، كما يمكننا من ضبط أيام صيامنا وزكاتنا وحجنا ، وضبط جميع أعمالنا وإنجازاتنا ، يقول عز وجل في سورة يونس ، آية ٥ : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين

والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، نفصل الأيات لقوم يعلمون) .

مصادر التعلم وأجهزته :

وما دام الإنسان قد خلق قابلا للتعلم ، فإن منطق التسلسل الإلهى قد اقتضى أن يزود الإنسان بالوسائل والمنافذ التى من خلالها يكتسب المعارف المتعددة والمعلومات المختلفة ، وأن يكون مهيئا وقادرا علي تلقى المعرفة من مصادرها ، ويمكن أن نشير إلى هذه المصادر والأجهزة فيما يأتى

١ - **الوحى :** الوحى لغة ، كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه ، وأوحى إليه ، وله ، أى أشار وأومأ ﴿ **فخرج علَىٰ قَوْمِهِ مِن الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَة وعشيًّا** ﴾ مريم /١١ .

وهو أيضا بمعنى الإلهام ، لكنه يمكن أن يشمل كائنات أخرى ، قال عز وجل: ﴿ **وأَوْحَىٰ ربُّك إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخذي مِنَ الْجِبال بُيُوتًا ومن الشَّجَر ومِمَّا يعرشُون** ﴾ النحل / ٦٨ .

لكن الوحى الذى نعنيه هنا هو مايقصد في اصطلاح الشرع ومعناه : الرسالات السماوية التى يكلف بها نبى مختار من عباد الله ليعمل بها أو يبلغها مع عمله إلى القوم الذين أرسل اليهم (عبد العال مكرم . صـ ١٨) .

وإذا كانت حواس الإنسان هى منافذ للتعلم ، فإنها محدودة بنطاق معين لا تمتد إلى ماهو أبعد منه . صحيح أن الإنسان دائما يطور من الأجهزة التى تعد امتدادا للحواس وخاصة بالنسبة للسمع والبصر ، لكنها تظل قاصرة عن الإحاطة بمختلف الموجودات .

وإذا كان العقل يستطيع أن ينفذ إلى ما وراء المحسوسات ويتجاوز

نطاقها ، لكن هناك عددا غير قليل من مواطن الزلل التي تجعل النتائج التى يصل إليه ، كما تحتمل الصواب ، فانها أيضا تحتمل الخطأ . فضلا عن خضوعه لمؤثرات التكوين والتنشئة وتلونه بها ، وأيضا يمكن أن يصدق عليه ما قلناه عن الحواس من حيث محدودية النطاق .

هنا يكون الوحى مصدرا لكم من الحقائق والمعارف الضرورية لهداية الإنسان ، تجئ إليه عن طريق الرسل والأنبياء، مما جعل بعض العلماء من المسلمين يسمون هذه المعرفة الناتجة عن هذا الطريق (بالمعرفة اللدنية) ، أى التى جاءت من عند الله عز وجل ، وتسمى العلوم المبنية عليها كعلوم القرآن وعلوم الحديث والفقه والشريعة ، بالعلوم النقلية ، على أساس أن الحقائق المبنية عليها جاءت (نقلا) عن طريق الوحى .

ومن هذا ما ورد في قوله تعالى لرسوله الكريم صلي الله عليه وسلم : ﴿ وأنزل اللَّهُ عليْك الْكتاب والْحكْمةَ وعلّمك ما لمْ تكُن تعْلمُ ﴾ النساء / ١١٣ ، يعنى من الشرائع والأحكام (عبدالفتاح جلال، ص٩٩) . ومن هذا العلم الذى يكون مصدره إلهى ، كل ما يتصل بتعلم العبادات بمعناها الضيق ، أي ما فرضه الله من صلاة وصوم وزكاة وحج ، إذ أنه سبحانه وتعالى هو الذى شرعها وفرضها على الناس ، ولذا كان الله هو مصدرها، ويدل على ذلك قوله :

﴿ حافظُوا على الصّلوات والصلاة الْوُسْطىٰ وقُومُوا للّه قانتين (٢٣٨) فإن خفْتُم فرجالا أو رُكْبانًا فإذا أمنتُم فاذْكُرُوا اللّه كما علّمكُم مَا لمْ تكُونُوا تعْلمُون ﴾ البقرة / ٢٣٨- ٢٣٩، ويؤكد ذلك أيضا ما ورد في تفسير (ويعلمكم مالم تكونو تعلمون) ويؤكد ذلك أيضا ما ورد في تفسير من قوله تعالى كما أرسلنا ﴿ فيكُم رسُولاً منكُمْ يتلُو عليكُم آياتنا ويُزكّيكُم ويُعلّمُكُمُ الكتاب والْحكْمة

ويُعلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ١٥١ . مما لا طريق إلى معرفته سوى الوحى (جلال /٩٩) .

وتجئ آيات القرآن الكريم منبئة بما أوحى إلى العديد من الأنبياء والرسل :

- ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ النساء . ١٦٣ .

- ﴿ أوْحَينا إِلَيْك كما أوْحينا إِلَىٰ نُوحٍ والنَّبِيِّين مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيم وإسماعيل وَإِسْحَاق ويعْقُوب والأسْبَاط وعِيسَىٰ وأيُّوب ويُونُس وهارُونَ وَسُلَيْمَان وآتَيْنَا داوُود زبُورا ﴾ النساء / ١٦٣ .

- ﴿ كذلك أَرْسلْنَاك فِي أُمَّةٍ قَدْ خلَتْ مِن قَبْلِهَا أُممٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْك وهُمْ يَكْفُرُون بالرَّحْمن﴾ الرعد /٣٠ .

فما يوحى إلى النبى لابد أن يبلغ إلى الناس ليعلموا ما خفى عليهم ويقفوا على ماقصرت عن معرفته عقولهم ودلالة ما تدركه حواسهم :

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك)الكهف / ٢٧ .

﴿ وجعلنَاهُمْ أَئِمَّةً يهْدُون بأَمْرنا وأوْحَيْنَا إِلَيهِمْ فعْلَ الْخيْرَات﴾ الأنبياء/٧٣

وأن ما يوحى به للأنبياء من لدن الخالق سبحانه وتعالى ، كان من الطبيعى أن يكون (حقا) وكان من المنطقى أن يكون (صدقا) .

﴿ والَّذي أَوْحيْنَا إِلَيْكَ منَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْن يَدَيْهِ﴾ فاطر/٣١ .

وهذا الذى يوحى به للأنبياء أمور لا يدركها الإنسان بنفسه ، لأنها كما قلنا مما يتصل بعالم الغيب : ﴿ تلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ هود /٤٩

هذه المعرفة المتعلقة بعالم الغيب والتى تجئ عن طريق الوحى والتى تمثل جماع الحق والصدق ، على الإنسان أن يؤمن بها ، فمن شأن هذا الإيمان

والتصديق أن يسم أصحابه بالتقوى والهداية ، استحق رضى الله وفتح آفاق النجاح والفلاح :

- ﴿ الٓمٓ (١) ذلك الْكتابُ لا ريْب فيه هُدى للمُتّقين (٢) الّذين يُؤمنُون بالغيب ويُقيمُون الصّلاة ومِمّا رزقْناهُمْ يُنفقُون (٣) والّذين يُؤمنُون بما أُنزل إِلَيْك وما أُنزل من قَبْلك وبالآخرَة هُمْ يُوقنُون (٤) أُولئكَ علىٰ هُدى مّن رّبّهمْ وأُولئك هُمُ المُفْلحُونَ ﴾ البقرة / ١-٥ .

وما أوحى إلى النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن كريم ، هو مصدر التعليم والتعليم الأساسى في الإسلام كما فصلنا من قبل : ﴿ وأُوحِي إِليَّ هذا القُرْآنُ لأُنذركُم به ﴾ الأنعام /١٩ .

وليست المسألة فيما يصل إلى الإنسان عن طريق لوحى مسألة تلق وفهم وتصديق ، وإنما هي - بالإضافة الى هذا - عمل وسلوك يجئ عن طريق الاتباع مهما كانت هناك من صعاب ومشاق :

(واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) يونس / ١٠٩ .

وهناك نوع من العلم مصدره إلهى ، اختص به الله سبحانه وتعالى من شاء من عباده (جلال / ١٠١) وقد أشارت إليه الآية التالية عن علم الخضر عليه السلام : ﴿ فوَجَدَا عبْدا مّنْ عبادنَا آتيْناهُ رحْمةً مّنْ عندنا وعلّمْنَاهُ من لّدُنّا علما ﴾ الكهف / ٦٥. ويرى بعض المفسرين أن علم الخضر عليه السلام كان علم الغيب ، ويقول ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بمواطن قد أوحيت إليه ، لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها ، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم . (القرطبى ، صـ٤٠٥٥ .) ،ولذلك لم يصبر سيدنا موسى على تصرفات الخضر حيث أن ظواهر

الأعمال لا تبرر تصرفات الخضر عليه السلام ، ولذلك أخبره في النهاية تفسير ما فعله مختتما التفسير بقوله – كما ذكر القرآن الكريم :، ﴿ وما فعلْتُهُ عنْ أمْرِي ذَلِكَ تأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ الكهف / ٨٢ . ومن هذا النوع من العلم اللدنى ، ماورد في قصة يوسف عليه السلام ، حيث علم أبوه يعقوب عليه السلام أنه ما يزال حيا رغم قول أبنائه بأن الذئب أكله (جلال / ١٠٢) ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قال بلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جميلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ ما تصفُون ﴾ يوسف/١٨، وظل يعقوب يذكر يوسف عليهما السلام رغم مضى السنين :

﴿ قالُوا تاللَّهِ تَفْتأُ تذْكُرُ يُوسُف حتَّىٰ تَكُونَ حَرضًا أَوْ تَكُون منَ الْهَالِكِينَ ﴾ يوسف / ٨٥ ،ولكن يعقوب يعلم من الله أن يوسف بخير وأنه سيراه ولذلك يقول تعالى :

﴿ قال إنَّما أشْكُو بَثِّي وحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وأعْلَمُ مِن اللَّه ما لا تعْلَمُون ﴾ يوسف/٨٦

ثم يرد الله سبحانه وتعالى إلى يعقوب كلا من يوسف عليه السلام ، وأخيه ، بعد أن يرسل يوسف قميصه إلى أبيه :

﴿ ولَمَّا فصلَت الْعِيرُ قَال أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيح يُوسُف لَوْلا أَن تُفَنِّدُون ﴿٩٤﴾ قَالُوا تاللَّه إنَّك لفِي ضلالك الْقديم ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أن جاء الْبَشِيرُ أَلْقاهُ علَىٰ وَجْهِه فَارْتَدَّ بصيرا قال أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أعْلَمُ من اللَّهِ ما لا تَعْلَمُون ﴾ يوسف/٩٤-٩٦ .

ويظهر يوسف مهارات تأويل وتفسير ، إذ عندما دخل معه السجن فتيان ورويا له ما رأياه طلبا منه تفسيرا لذلك وكان مبررهما في هذا الطلب (إنا نراك من المحسنين) ، فهذه المقدرة على التأويل والتفسير ليست متاحة لأى أحد وإنما تتاح فقط لهذا النفر من المحسنين ، ومن هذنا يجئ

قوله تعالى :

﴿ ولمّا بلغَ أشُدَّهُ آتيْناهُ حكمًا وعِلْمًا وكذلك نجزِي الْمُحْسنين﴾ يوسف/٢٢، ولأنه من هؤلاء المحسنين المتقين ﴿ وكذلك مكّنّا ليُوسُف في الأرْض ولنُعلّمهُ من تأويل الأحاديثِ ﴾ يوسف/٢١ فلما نبأهما يوسف بتأويل ما رأياه ، حرص على أن يؤكد لهم أن تأويله ﴿ ممّا علّمني ربّي ﴾ يوسف /٣٧ . وما كان ربه ليقدره على هذا إلا بعد أن ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، واتبع ملة إبراهيم واسحق ويعقوب : ﴿ ذلك من فضْل الله علينا وعلى النّاس ولَكنّ أكْثر النّاس لا يشْكُرُون﴾ يوسف /٣٨

وكان في مكة غلام يسمى جبر الرمى ، وكان نصرانيا ، وكان المشركون إذاسمعوا من النبى .صلى الله عليه وسلم آيات القرآن وما اشتمل عليه من قصص الأولين مع أنه أمي لم يقرأ، قالوا إنما يعلمه جبر وهو بشر وآدمى من جنسه وليس وحيا من عند الله ، فرد عليهم بأن لسان الذى يعُلم محمدا أعجمى لا يفصح عن مراده ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته من رجل أعجمى ، وأنتم ياأهل مكة أفصح الناس بيانا وأقواهم حجة وبرهانا، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا وقد عجز جميع العرب أن يأتوا بمثله فكيف تنسبوه إلى أعجمى ألكن ؟

إن القرآن معجز بلفظه كما هو معجز بمعناه ، فإن زعمتم أن بشرا يعلمه بمعناه ، فكيف يعلمه هذا النظم الذى أعجز جميع أهل البلاغة والفصاحة ، إذن فما جاء به محمد قرآن من عند الله معجزة له :

﴿ ولقدْ نعلمُ أنّهُمْ يقُولُون إنّما يُعلّمُهُ بشرٌ لّسانُ الّذي يُلْحدُون إليْه أعْجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مُّبينٌ﴾ النحل / ١٠٣ .

٢ - الحواس : ونحن نتعامل مع مفردات هذا الكون وعناصره ومكوناته من خلال ما تنقله إلينا حواسنا من انطباعات حسية ، فلمختلف عناصر الكون ومكوناته صورها وتكويناتها ، ولها طعومها ومذاقها ، ولها ألوانها وتبايناتها ، كما أن لها أحجامها وأشكالها ، وإذا شبهنا مكونات الكون وعناصره بأجهزة إرسال ضخمة ، فإن لها ذبذباتها وموجاتها التي وفر الله سبحانه وتعالى داخل الإنسان أجهزة استقبال ، كيف كل منها ، وفقا لما لديه من موجات وذبذبات أن يتلقى ما يرسل من أجهزة الإرسال ، ومن هذه الحواس:

١ – السمع : فجهاز السمع المثبت في رأس الإنسان ، جليل القدر بين الأجهزة التي زود بها الجسم ، لأن حياتنا السوية بدون هذا الجهاز تضمحل وتكاد لا تساوى شيئا يستحق الذكر (شاكر / ٢٧) .

وكل الحواس يمكن الاستعاضة إلى حد ما عن فقد إحداها وتلافي أكبر قدر من النقص الذى يُحدثه ذلك ، إلا فقد السمع في وقت مبكر ، فإنه يُحدث اختلاً في بناء المرء تتعذر معه موازنها . وإذا كانت سلامة السمع بهذا القدر من الأهمية فلأن وظائفه في حياة الإنسان تشكل أخطر أعمدة الكائن الحى السوى العاقل المستفيد من أعقد العلوم والمشيد لأرقى الحضارات (شاكر / ٢٨)

ويقوم السمع بدوره كمنفذ يتلقى منه الحقيقة والحق ، يقول تعالى : ﴿وأنَا لمَّا سمعْنا الْهُدىٰ آمنَّا به فَمن يُؤْمن بربّه فَلا يَخافُ بخْساً ولا رهقا﴾الجن/ ١٣ . ويجئ موقف مشابه في سورة الأحقاف ، الأيتان ٢٩–٣٠ . ﴿وإذْ صرفْنا إليْك نفراً مّن الْجنّ يستمعون الْقُرْآنَ فلمَّا حضرُوهُ قَالُوا أنصتُوا فلمَّا قُضي ولَّوْا إلىٰ قوْمهم مُنذرين (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إنَّا سمعْنَا كتابًا أُنزِلَ منْ بعْد مُوسىٰ مُصدقًا لّما بيْن يديْه يهْدي إلى الْحقّ وإلىٰ طريقٍ مُّسْتقيمٍ﴾.

هذا الإيمان إنما حصل لهؤلاء القوم بتأثير علم بحدث جديد اقتحم بلا استئذان أعماقهم عبر نافذتي السمع ، ومن ثم راح يتفاعل في أغوار العقل وسائر اجزاء الكيان إلى أن تفجر ينبوعه إيمانا (شاكر / ٢٩) .

وهناك فضيلة ُخرى كبرى للسمع هى أن العلم المتلقى قراءة بالعين واللمس لا يتسع لكل العباد ، أما العلم المسموع، فتلقيه أقل مؤنة، وأكثر شيوعا لأنه يدخل فى قدرة المتعلم والأمى، وقدرة البصير والأعمى وقدرة الكبير والرضيع. وعند التلقى سماعا تضاف رقابة العين، فهى تارة تؤكد المسموع أو تدحضه ونجدها تارة أخرى تقوم بتعضيد المتلقى سماعا بالمتلقى مشاهدة . أما عند التلقي قراءة بالعين واللمس، فالسمع لا يكون رقيبا على المقروء ولا يتدخل بتأكيد صحته أو دحضها ولا يقوم بتلقى شئ مسموع معاضدة لتلقى شئ مقروء فى وقت واحد، بل إن هذا لو حصل لكان ثم تشويش على المقروء واضطراب الاستفادة من المسموع وفوات تحصيل الفائدتين معا على قدر كامل. (شاكر /٣٠)

ولعل ما نجده فى القرآن الكريم من تقديم السمع على البصر بشكل مقصود فى أكثر الآيات المتضمنة لذكر الحاستين تدليلا على التشريف والأهمية يعود إلى أن فضائل السمع تفوق فضائل البصر قدرا .

ويقول عز وجل عن آثر الاستماع الجيد :﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ الأنعام /٣٦، فمن يستمع بإمعان يدلل على رغبته فى التفاعل من بعد مع ما يسمعه بوعى وذكاء وفطنة، ومن ثم رغبته فى الوقوف أمام حصيلة التفاعل بشعور عال بالمسئولية وحرص واهتمام . ومثل هذا المرء يتلقف من داخله أمانة كأعز ما تكون وأغلاه فيبادر إلى الاستجابة لداعى الحق وسلوك سبيله رغم كل العوائق (شاكر/٣١).

وهناك توجيه تربوى هام نستدل عليه من قوله عز وجل ﴿إن تدْعُوهُم لا يسمعوا دُعاءكُم ولو سمعُوا ما استجابُوا لكُم﴾ فاطر/١٤ فهذه الآية تومئ إلى أن الإنسان لا يستفيد من شئ ولو كان دعوة الحق قبل أن يقدم بين يديه ما يساعد على السماع الطبيعى جهد المستطاع (شاكر/٣٢)، فما يساعد على السماع الطبيعى، القيام أولا بتبديد مخاوف الآخرين وأوهامهم تجاه الأمر المطلوب تبليغه إليهم، وكذلك تجويد وسائل التبليغ كالقول الرصين والفعل الجذاب والتأتى الحاذق والأسلوب الحكيم، وكل المتيسر من الخلق الحسن كصدق الحديث ولين العبارة وأدب الحوار .. وهكذا (شاكر/٣٣)

ويقول تعالى : ﴿إنّ في ذلك لذكْرىٰ لمن كانَ لهُ قَلْبٌ أوْ ألْقَى السَّمْعَ وهُو شهيدٌ﴾ ق /٣٧، فتشير لنا هذه الآية أن الذكرى بمواعظ الله عز وجل إنما تحصل لمن أوتى القلب الحى السليم الذى لا تقيده الأهواء ولا تفسده الشهوات. وكذلك فإن الذكرى تنفع من ألقى السمع وهو شهيد، (شاكر/٣٦) (ألقى السمع) كأنه رفع يده لئلا يتأثر الفعل بشوائب معكرة، ولما كان ملقى السمع شهيدا على الاستماع فهو إذن حارس أمين على ما يتلقاه . وليس مطلوبا منه أن يحرس العمل العقلى وإنما إذا وفى حق الحراسة على السماع بكل أمانة، أى أن لا يلصق بالمسموع شوائب معكرة لمجرى التفكير، يكون قد أعان أفضل إعانة على أن ينجز العمل العقلى التفاعل مع ما بحوزته من مسموع على أكمل وجه (شاكر/٣٧).

ب-البصر وإعطاء السمع سبق الأهمية لا يقلل من مكانة النظر العينى والدور الموكول إليه فى حياة الإنسان، فعندما تراجع البصر تجاه السمع خطوة إلى الوراء، بقى محازيا له فى النهوض بأعباء الاستيعاب

العلمي وإمتاع الإنسان بما أودعه الله الخالق جل جلاله فى هذا الكون العظيم (شاكر/٣٧).

الإنسان يغتر أحيانا بما هو عليه من قوة وتمكن، فيغفل عن ربه ويوغل فى طريق الغرور إن لم يسترشد بقبس هدى فيقف على جادة الحق، وهنا تذكرة من الله : (ألم نجعل له عينين) البلد/٨

إن مثل من أوتى عينين فلم يسترشد بهما كمن أوتى مصباحا وسط الظلمة، فلم يلتمس الأمان لموطن قدمه والخلاص لكيانه المهدد، وإنما راح يستعين بضوء المصباح على طلب الحفر الخطرة والتوجه إلى جحور الحيات والتوغل فى مواطن الثعابين بحثا عن المهالك، وهو يحسب أنه يحسن صنعا أو يقوم ببطولة !! (شاكر/٤٠)

وعينا الإنسان ليستا كالمصباح يجده المرء على قرعة الطريق، أو يقتنيه بثمن زهيد فيحمله وينطلق إن شاء انتفع به وإن شاء ازداد ضلالا . العينان أغلى أمانة ممن خلق الإنسان، فهو إن انتفع بهما فى الاهتداء إلى أقوم سبيل، يكون قد أكرم أمانته وأبرأ ذمته أمام الخالق، أما إن لم ينتفع بهما وضل بلا مبالاة لاهثا وراء الهوى، فإنه سيلاقى الحساب العسير عما أوتمن عليه، والويل له مما اقترف حيث لا يقبل منه عذر ولا اعتذار (شاكر/٤١)

ويقول سبحانه وتعالى : (ولهم أعين لا يبصرون بها) الأعراف/١٧٩، فأصحاب جهنم هؤلاء كانت لهم أعين فى دنياهم، أى لم يكونوا محرومى النظر، بل كانوا فى تنعم بها كسائر الخلق، ولكنهم ما أرادوا الإبصار المضئ لدواخلهم المظلمة، ما أرادوا اكتساب فائدة الإبصار، فهم تارة لا يتجاوزون بنظرهم سطح المنظور، لا يكلفون أنفسهم عناء استطلاع الحواس

والأعماق عندما يتعلق الأمر بتكوين عقيدة وحسم الرأى وأحكامه بخصوص الحقائق الكبرى المبثوثة فى هذا الوجود، وهم تارة أخرى ينظرون بأناة وإمعان وذكاء استطلاعا لدقائق الأشياء، ولكنهم غير متجردين، وإنما يحكمهم الهوى، فكيف يمكنهم التماس الحق وهم له كارهون ابتداء؟ (شاكر/٤٣)

ويقول عز وجل : ﴿ وما يستوي الأعْمىٰ والْبصيرُ﴾ فاطر /١٩

بالفعل، ليس سواء تمكن ذاتى من مواجهة المحيط بفضل البصر، وشبه تمكن ضئيل يرجى بواسطة الغير لاستحكام العمى، وليس سواء، نهوض عال بأعباء الحياة بفضل استطلاع العينين مجال الحركة جيدا أمام اليد والقدم ليكونا على بينة وسط أعتم رؤية، إذ لا قدرة للعينين البتة على استطلاع مجال الحركة وإنما كل ما يتم يحصل بدلالة دليل فى أحسن الأحوال وإلا، فالجمود أو التخبط العشوائى . (شاكر/٤٥).

وفى الخطاب القرآنى حث قوى للإنسان كى ينظر إلى مألوفات كثيرة فى هذا الكون ويتفكر فى شأنها وبراهينها الساطعة، لأن هذا النسيان صفة المغفلين، وهو لا يليق بغافل يتحسس المعارف ويسبر أغوارها وينقاد لمؤداها (شاكر/٥٥) ها هو عز وجل يقول :

-(قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق) يونس /٥٩

﴿ أفرأيْتُم مَّا تُمنُون (٥٨) أأنتُم تخلُقُونهُ أمْ نحنُ الْخالقُون ﴾الواقعة/٥٨-٥٩

﴿ أو لمْ ير الإنسانُ أنَا خلقْنَاهُ من نُطْفَةٍ فإذا هُو خصيمٌ مُّبينٌ ﴾يس/٧٧

- ﴿ ألمْ تر أنَ اللَّه سخَّر لَكُم مَا فِي الأرْض والْفُلْك تجْري في الْبَحْرِ بأمْرِه ويُمْسكُ السَّماء أن تقع على الأرْضِ إلاَّ بإذْنه إنَّ اللَّه بالنَّاسِ لَرءُوفٌ ر رحيمٌ ﴾الحج/٦٥

-(ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

جـ - اللمس والشم ولقد ورد اللمس الذى يؤدى إلى المعرفة فى آية واحدة، هى قوله تعالى: ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ . الأنعام /٧.

ويتبين من هذه الآية أن اللمس باليد يمكن للعقلاء أن يصل بهم إلى التعرف على معلومة ما، أما هؤلاء الكفار الذين عميت قلوبهم عن الدلائل المثبتة لنبوة الرسول عليه الصلاة والسلام، فيطلبون منه أن يسأل ربه أن ينزل من السماء كتابا فى صحيفة يلمسوه بأيديهم حتى يتأكدوا من أنه من عند الله. ويخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنهم مع ذلك سيكذبون ويقولون إنما سكرت أبصارنا وسحرنا. إنه ليس الذى يجعلهم يعرضون عن آيات الله، إن البرهان على صدقها ضعيف، أو غامض، أو تختلف فيه العقول، إنما الذى يجعلهم يقفون هذا الموقف هو المكابرة الغليظة والعناد الصفيق. وهو الإصرار مبدئيا على الرفض والإنكار وعدم اعتبار البرهان أو النظر إليه أصلا !! ولو أن الله - سبحانه - نزل على رسول الله-صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن، لا عن طريق الوحى الذى لا يرونه، ولكن فى ورقة منظورة ملموسة محسوسة، ثم لمسوا هم هذه الورقة بأيديهم -لا سماعا عن غيرهم، ولا مجرد رؤية بعيونهم-ما سلموا بهذا الذى يرونه ويلمسونه، ولقالوا جازمين مؤكدين : (إن هذا إلا سحر مبين) . قطب/١٠٣٩)

وهى صورة صفيقة، منكرة، تثير الإشمئزاز، وتستعدى من يراها عليها، صورة تثير النفس لتتقدم فتصفعها، حيث لا مجال مع هذه الجبلات لحجة أو جدل أو دليل.

وتصويرها على هذا النحو-وهى صورة تمثل حقيقة لنماذج مكرورة يؤدى غرضين أو عدة أغراض .

إنه يجسم للمعارضين أنفسهم حقيقة موقفهم الشائن الكريه البغيض كالذي يرفع المرآة لصاحب الوجه الشائه أو السحنة المنكرة، ليرى نفسه فى هذه المرآة ويخجل منها .

وهو فى نفس الوقت يستجيش ضمائر المؤمنين تجاه إعراض المشركين وإنكار المنكرين ويثبت قلوبهم على الحق، فلا تتأثر بالجو المحيط من التكذيب والإنكار والفتنة والإيذاء .

كذلك يوحى بحلم الله الذى لا يعجل على هولاء المعارضين المكذبين، وهم فى مثل هذا العناد المنكر الصفيق .

وكلها أسلحة وحركة فى المعركة التى كانت تخوضها الجماعة المسلحة بهذا القرآن فى مواجهة المشركين. قطب /١٠٣٩

وهكذا يتضح أن اللمس من أدوات الإنسان للوصول إلى العلم، وإن كنا نتبين أن أدوات المعرفة متكاملة، فاللمس من غير تمييز ونظر عقلى لم يؤد إلى الوصول إلى الحقيقة، وكذلك (الشم) ، من الأدوات التى يصل بها الإنسان إلى العلم، فقد ورد فى القرآن الكريم .

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا تفندون)، أى أنى لأشم رائحة يوسف لولا أن تتهمونى بضعف العقل (جلال/١٠٤).

٣-العقل : منذ أن خلق الله هذا الكون بما فيه وبمن فيه، وجد الإنسان نفسه فى موقف ضعف أمام العديد من الظواهر ،الكائنات الأخرى، الحى منها وغير الحى ..

كانت دائرة سلطانه وسيادته من الضيق إلى الحد الذى وجد نفسه فى

كثير من الأحيان يقف عاجزا عن أن يتغلب على صرخات الجوع التى تمزق أمعاءه وآلام البرد أو الحر التى تحاصر جسده ثم تمر السنون والأعوام وتتوالى القرون المختلفة، فإذا بهذا الإنسان يوسع من دائرة سلطانه وسيادته، ويسخر العديد من الظواهر والكائنات، الحى منها وغير الحى لما فيه مصلحته وخيره وسعادته، بعد أن جاب الآفاق المختلفة مزودا بهذه الجوهرة الثمينة التى خصه الله عز وجل دون سائر الكائنات الأخرى ...

إنها العقل ...

فأى عمل هذا الذى قام ويقوم به هذا العقل بحيث مكن، وما زال، يمكن الإنسان من سلسلة لا تنتهى من الانتصارات فى مواجهة العديد من المشكلات التى واجهته، وما زالت، فى مسيرة حياته على مر القرون والعصور

تأمل فى نفسك وما يملكه جسمك من أجهزة وأعضاء، كل منها يقوم بوظيفة بعينها ويؤدى نشاطا بذاته..

فالعين، تتيح لك فرصة الرؤية لما فى الكون من أشكال وألوان، فوظيفتها هى : الإبصار. والأذن، تتيح لك فرصة سماع ما يصدر من أصوات ونغمات، فوظيفتها هى : السمع. واللسان، يتيح لك فرصة معرفة (مذ ق) الطعام والشراب، فوظيفته هى : التذوق ... وهكذا الأمر بالنسبة لسائر ما يملك الإنسان من أجهزة وأعضاء ..

لكن الأمر لا يقف عند حد (تلقى) ما يرد على الأعضاء من انطباعات حسية تستقبلها : فماذا يعنى هذا الصوت ؟ وماذا يعنى هذا الملمس؟ وما علاقة هذا اللون بهذا وذاك ؟ وما أثر ما سبق أن تلقيته من إحساسات على ما يحدث الآن؟ وما هى النتائج التى يمكن أن تترتب مستقبلا على ما يحدث

الآن؟ ... هنا يبرز (العقل) ليقوم بالنشاط الذى هو وظيفته، ألا وهو التفكير.

إن الحواس -أدوات الإدراك - لا ينظر إليها كتاب الإسلام من حيث هى أجهزة حسية فحسب، بل هى فيه وسائل وعى وتمييز وتبصر . ومهما يعرض لها من خلل يعطل وظيفتها العضوية، فليس بحيث يطمس إنسانية البشر . وإذا لم يمكن تدارك الخلل بالطب والعلاج، فإن الآدمى يظل إنسانا، ولو كان قد ولد أكمه وأعمى ، أو أخرس وأصم، وفى ابن مكتوم نزلت آيات (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى).

إنما ينطفئ جوهر الإنسان بعمى البصيرة وصمم الوعى وضلال الرشد، فالعمى عمى البصيرة، والبكم سكوت على منكر وكتمان لكلمة الخير، والصم صد عن دعاء الحق والهدى، وغفلة عما يرى من آيات العظة والاعتبار(الشخصية الإسلامية/١٤٦) :

(ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون . ومنهم من ينظر إليك. أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) يونس/٤٢-٤٣

والعقل هو الذى يحمى الإنسان من مثل هذا الداء العضال، لأن العقل مناط الوعى والرشد والبصر والتمييز والإدراك، ومن ثم يرتبط الإيمان بالعقل فى العقيدة الإسلامية ارتباطا وثيقا، فكتاب الإسلام يتجه إلى العقل فى تأييد الدين وترسيخ الإيمان . والله يبين الآيات لقوم يعقلون، ويؤمنون، ويضرب الأمثال لقوم يتفكرون ويبصرون ويفقهون ويوقنون، ويسوق العبرة لأولى الألباب، والعالمين، لأنهم المرجوون للنظر فى آيات القدرة الإلهية، وتدبر النظام الكونى المحكم، والإيمان بأنه لم يوجد عبثا، ولا يمكن أن يسير

بتلقائية عشواء : (الشخصية الإسلامية/١٤٨) : ﴿وتلك الأمثالُ نضربُها للنَّاس وما يعقلُها إلاَّ العالمُون﴾ العنكبوت/٤٣ .

ونحن لا نبالغ فى كثير أو فى قليل إذا قلنا أن العملية التربوية يستحيل أن تتم إذا لم تعتمد اعتمادا كليا وجزئيا على العقل، وإلا تحولت إلى مجرد عملية (تدريب) كتلك التى نرى أمثلة لها بالنسبة لما يحدث من تدريب لبعض الحيوانات وخاصة تلك التى نشاهدها عادة فى السيرك . بل إن فريقا كبيرا من الفلاسفة والمفكرين والمربين قد وصل بهم تقدير العقل فى العمل التربوى إلى الحد الذى أسقطوا فيه الحواس من اعتبارهم وهو خطأ لا شك فيه، إلا أنه لا يلغى أبدا دور الحواس .

ويرى المحاسبى أن العقل يستعمل للدلالة على معان متعددة منها (عبد الرحمن صالح/٢٠) :

-الغريزة التى تمكن المرء من اكتساب المعرفة . والعقل بهذا المعنى موجود عند المؤمن وغير المؤمن، وهذا الاستعداد الذى يتوافر لدى الإنسان العاقل يفتقر إليه المجانين.

-فهم المعنى، سواء كان الموضوع يتصل بهذه الحياة الدنيا أو الآخرة . وهذا أيضا يتساوى فيه الإنسان المؤمن والإنسان الكافر إذا توافر الاستعداد الغريزى ، فأهل الكتاب يسمعون كلام الله ويدركون معناه ودليل ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة (آية ٧٥) «ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه» . فهم عقلوا ما سمعوه وقاموا بتحريفه بعد ذلك .

-العقل بمعنى البصيرة أو العقل عن الله، وهذه لا توجد إلا عند الإنسان المسلم إذ أن نتيجة علمه تقوده إلى تعظيم الخالق.

ويميل المحاسبى إلى ضرورة اشتمال العقل على المعانى السابقة

جميعها وهذا يتضح من تعريفه للعقل إذ يقول : «فالعقل غريزة جعلها ء وجل فى الممتحنين من عباده أقام به على البالغين للحلم الحجة ».

والذى ينبغى أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على اختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا، ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد، بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين هل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان فى تقديره . (العقاد: التفكير فريضة إسلامية/١٩)

فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ولا يفرض على الإنسان قربانا يسعى به إلى المحراب شفاعة من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة، فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة، فليس فى هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان إلا من طريق العمل. ومن هنا جاءت أهمية العقل التى أشار إليها القرآن الكريم، ولن يتجه الخطاب إذن إلا إلى عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الاله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى (العقاد/٢٠) .

عقل الإنسان إذن طاقة من أكبر طاقاته ونعمة من أكبر نعم الله عليه : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾الملك/٢٣

(والفؤاد) يستخدم فى القرآن بمعنى العقل، أو القوة الواعية فى الإنسان أو القوة المدركة على وجه العموم .

ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع به أن يميز بين الأشياء ويدرك

خصائصها، ويستنبط فوائدها، ويشكل صورا جديدة من (المادة) التى وجد نفسه محاطا بها على ظهر الأرض أو فى السموات. وفى العصور الحديثة خاصة زادت فتنة الإنسان بعقله، حين رأى المخترعات التى ينتجها، والكشوف التى يقع عيها (محمد قطب: منهج التربية الإسلامية/٩٠)

إن الإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها، فهى هبة الله المنعم الوهاب، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة، لا يبخسها قدرها، ولا يعطيها فوق قيمتها، ويستعملها جميعا إلى أقصى طاقاتها لفائدة المخلوق البشرى وصلاح حاله على الأرض . ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها ويربيها لتتجه فى طريق الخير . ولكى يصل إلى ذلك فإنه يمزجها بمزيج الروح، ويستنبتها فى تربة الروح لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق (محمد قطب/٩١)

ومن خصائص العقل فى القرآن، الادراك، الدى يناط به الفهم والتصور، وهو على كونه لازما لإدراك الوازع الأخلاقى وإدراك أسبابه وعواقبه يستقل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى أو بالحسنات والسيئات. (العقاد/٧)

ومن خصائصه كذلك أنه - فيما تظهرنا عليه آيات ربنا الكريم - يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه . وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها القدرة على (الحكم) وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا انتهت حكمة الحكيم به إلى العلم بما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه .

ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى فى القرآن (لرشد) وهو مقابل لتمام التكوين فى العقل الرشيد ، ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع

والعقل المدرك والعقل الحكيم ، لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلال ، وقد يؤتى الحكيم من نقص في الإدراك ، وقد يؤتى العقل الوازع من نقص في الحكمة ، ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد من هذا وذاك . (العقاد/٨)

وإن عملية استقراء الآيات القرآنية المتصلة بالعقل بمعانيه وخصائصة المختلفة تظهرنا على الحقائق التالية :

- أن الله حين طلب إلى العقل النظر في الكون للتعرف عليه ، إنما كان ذلك منه إيحاء أو إشارة بأن العقل البشرى له قدرة على أن يدرك أبعاد هذا الكون بمن فيه وما فيه من كائنات ولو بالتدريج وفي الحدود التى رسمها الله عز وجل .

- أن العقل البشرى سوف يدرك فيما يدرك من حقائق هذا الكون مقاصد المولى سبحانه وتعالى من خلق هذا الكون بمن فيه وما فيه . كما سوف يدرك من كيفية بناء الله لهذا الكون السنن والقواعد التي أقام الله عليها هذا البناء المحكم من حيث هو صنع الله الذى أتقن كل شئ . وإذا كانت سنن الله لا تتغير إلا بإرادته ، والقواعد التي أقام عليها هذا النباء ثابتة فقد أصبح في مكنة العقل البشرى الاهتداء إلى هذه القواعد وممارسة الحياة على أساس منها.

ثالثا - إن العقل البشرى لن يدرك كل الحقائق الكونية المتاحة له بمن فيه وما فيه دفعة واحدة وإنما سوف يدرك هذه الحقائق في مراحل مختلفة من الحياة . ومعنى ذلك أن العقل البشرى لن يكف عن البحث والدراسة ما دامت هناك أشياء لا تزال مجهولة ، ولا يزال هو يجد في البحث عنها .

ولابد لنا من وقفة سريعة فيما حققه العقل الإسلامى في صدر الإسلام

من معجزة ونحن نبحث سبل العمل المعاصر المؤدى الى التقدم والتطور .. كيف تمت المعجزة وما هى الظروف التى أعانتها على التحقق إستيعاب مذهل للعقل البشرى ، لتغيرات جذرية ، مكنته من إعادة التشكل والعمل وفق صيغ جديدة لم يألفها قبل انسان .

إننا نستطيع أن نحظى ببعض الإضاءات المركزة التى قد تعين على الجواب .. إن الإسلام ، منح المنتمين اليه قدرات إضافية لتجاوز حيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود.. إنه بالسلم ذي الدرجات العريضة الذى رسمه لهم ، والذى يبدأ بالإسلام وينتهي بالإحسان ، مرورا بالإيمان والتقوى ، شحذ طاقاتهم وشد همتهم ، ونفخ في روحهم ودفعهم دفعا الى التجاوز والاختراق من أجل الوصول الى القمة التى يطمح إليها كل منتم لهذا الدين . الإحسان .. التربية الحسنة .. هناك حيث التكشف الكامل ، والإبداع التام ، والتقابل الذى لا يحجبه شئ بين الله والإنسان (أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) عماد الدين خليل /٣٠

فهل آن لنا أن نسلك سبيل تربية الإحسان .. تربية الإسلام .. تربية القرآن ؟!

للمـــؤلف

١- الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
٢- المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٣- دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٤- تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٥- قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٦- الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ . صدر فى طبعة أخرى فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ١٩٨٦ بعنوان " دور الأزهر فى السياسة المصرية " ، مع حذف الفصل الأول ، وزيادة فصل فى آخره .
٧- التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
٨- أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، أعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
٩- التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٠- أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١١- التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٢- نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
١٣- دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .
١٤- دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، وكان قد صدر بالاشتراك مع آخرين بعنوان " التربية ومشكلات المجتمع " ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
١٥- دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .
١٦- المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .
١٧- دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
١٨- ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ فى دار نشر الثقافة ، القاهرة) .
١٩- تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .
٢٠- الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ثم صدرت طبعة منفردة مختلفة تماما ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧) .
٢١- النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

obeikan.com

٢٢- تطور إعداد معلم المرحلة الأولى فى مصر (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٣- محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٢٤- تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٢٥- معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، وكانت قد صدرت طبعة أولى منه ، مختصرة ، عن دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٨).

٢٦- إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، سلسلة كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢٧- الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ .

٢٨- بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٢٩- تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣٠- الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣١- هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣٢- هوامش فى السياسة المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

٣٣- اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٣٤- تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .

٣٥- محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .

٣٦- الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٣٧- دراسات فلسفية (بالاشتراك) ،للصف الثالث الثانوى (مستوى رفيع) ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٣٨- مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين (بالاشتراك) ، التقرير النهائى ، منتدى الفكر العربى ، عمان ، ١٩٩٢ .

٣٩- نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٤٠- رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٤١- التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ .وقد أعيد طبعه عام ١٩٩٩ بعنوان " التربية فى حضارات الشرق القدـ مع تغييرات جوهرية .

٤٢- مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ثم أعيد طبعه ، مع إضافات كثيرة ، عام ١٩٩٩ ، نفس الناشر .

٤٣- التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤٤- سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٥- فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٩٥ .
٤٦- التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ، ١٩٩٥ .
٤٧- التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٥ .
٤٨- التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٤٩- سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٠- التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، (كانت الطبعة الأولى المختصرة منه بعنوان " تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية " ، نفس الناشر ، ١٩٧٩) .
٥١- التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، الأهرام ، القاهرة ، ١٩٩٦ .
٥٢- التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٣- التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .
٥٤- البناء القيمى فى مجتمع الكويت (تحرير) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧ .
٥٥- استراتيجية تعليم الكبار فى الوطن العربى ، (تحت الطبع) ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٨ .
٥٦- التربية (بالاشتراك) لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
٥٧- التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .
٥٨- عرب فى قاع الزمن ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٥٩- دفتر أحوال التعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦٠- شجون جامعية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .
٦١- رؤية سياسية للتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٩ .